

راهبة كاسترو
الفكر العالمي
٩
دار ابن المقفع

كتبت كثيرا من القصص الفاجعة وها انا انتهي الى كتابة هـذه القصـة التي كلفتني ، دون كل الاخريات ، جهدا كبيرا ، وعناء عظيما ، فجاءت درة براقة ، وآية بينة ... لااعرف مثيلة لهـا في شدة الاسر ، وروعة التأثير ...

ستندال

١

أصغوا الي احدثكم بقصة الراهبة الشهيرة ، هيلين دي كامبيريالي ، راهبة دير كاسترو ... هذه القصة التي أثارت الرأي العام الايطالي والمجتمع العالي ، ردحاً طويلاً من الزمن ...

ولأعد بكم إلى حوالي العام ١٥٥٥ ، يوم كان العصاة الاشقياء ، يبسطون نفوذهم العريض على ما جاور روما من بلاد . وكان الحكم والمناصب الرفيعة ، في المدينة الخالدة ، ذلك العهد ، تباع من الاسر العريقة ذات السطوة والبطش .

وفي عام ١٥٧٢ ، عام حدوث هذه القصة ، إرتقى عرش القديس بطرس [١] ، البابا غريغوار الثالث عشر بيونكومباني .

كان هذا البابا يجمع كل الفضائل التي تخوله هذا المنصب الديني الرفيع .. إلا أننا نجده بالغ الضعف والتراخي كحاكم مدني لا يعرف كيف يسوس شعبه ولا كيف يسند مناصب القضاء إلى قضاة اتصفوا بالنزاهة والبعد عن الغرض ... كما انه لم يستطع قطع دابر الاشقياء واللصوص الذين كانوا يعيثون في البلاد فساداً عظيماً ...

---

(١) عرش البابوية

لشد ماكانت تحزنه الجرائم ترتكب وهو أعجز من أن يقتص من مرتكبيها ...

كان يخيل اليه ، وهو يلفظ الحكم بالموت ، انه يحمّل ضميره وزراً هائلا لايقوى ضميره على إحتماله !

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه السياسة الضعيفة ان غصت السبل بعدد من الاشقياء سرحوا ومرحوا وعاثوا فساداً في الارض وعسكروا على ابواب المدينة الخالدة .

أما المقر العام لحكومة الاشقياء المعادية لحكومة صاحب القداسة ، فكان في غابة فاكجيولا المترامية الاطراف المشرفة على الطريق الموصل من نابولي إلى ألبانو ...

وقد بلغ من إشتداد شوكة هذه الحكومة أن اضطرت حكومة روما ، مراراً كثيرة ، الى معاملة ماركو سيارّا ، أحـــد ملوك الغابة ، معاملة الند للند !..

ولقد دعم سطوة الاشقياء وزادهم قوة على قوة حبّ الفلاحين لهم وهم جيرانهم .

لقد شهدت مدينة ألبانو الجميلة ، المجاورة لمقر الاشقياء العــام ، سنة ١٥٤٢ ، شهدت مولد هيلين دي كامبيريالي المتحدرة من صلب اب يعتبر من أغنى نبلاء المقاطعة والذي استطاع ، بهذه الصفة ، أن يتزوج من الآنسة فيكتوار كارافا التي أضافت إلى غنـــاه العريض املاكاً فسيحة في مملكة نابولي .

ويروى أن راهباً قديساً من دير مونت كافي تنبأ للسيد كامبيريالي، والد هيلين، ان سلالته سوف تنقرض بموته وهو لن يرزق الا طفلين اثنين يموتان ميتة عنيفة ..

وكان هذا الراهب متنسكا متقشفاً يقيم في صومعة أشبه بزنزانة مرفوعة فوق الارض اقداماً كثيرة كصومعة القديس بولس .. كان يقيم فيها، منفرداً، متعبداً دون ان يدرك أحد من الناس السر الذي حدا بهذا الراهب إلى الانفراد في مثل هذا المكان العجيب.

كان المجتمع ينظر إلى السيد دي كامبيريالي نظره الى رجل مستقيم لايدخر وسعاً في سبيل التصدق على المحتاجين غير انه لم يكن بالرجل الاجتماعي وقد غلبت عليه هذه الصفة فآثر الابتعاد عن صخب روما والاقامة في قصر له بألبانو منصرفاً إلى العناية بشؤون أرضه الكائنة في واد شديد الخصب ممتد بين المدينة والبحر.

ونزولاً عند رغبة زوجته يسّر هذا السيد الثقافة العالية لولده فابيو الشاب الفخور جداً بمولده ولأبنته هيلين التي كانت آية في الجمال كما يظهر ذلك من اللوحة التي تمثلها والتي لاتزال محفوظة في مجموعة من اللوحات تعرف بمجموعها (فارينز).

غادرت هيلين دير كاسترو بعد أن أمضت فيه ثمانية أعوام تطلب العلم، وإلى هذا الدير إعتاد النبلاء والامراء الرومانيون إرسال أبنائهم ينهلون منه العلم والادب ...

ولم تنس هيلين، عند مغادرتها الدير، تقديم هدية المذبح

الكبير فيه كأساً فضية ثمينة رائعة النقوش ...

وما عادت هيلين إلى ألبانو حتى استقدم لها أبوها من روما ، الشاعر الشهير شيشينو ، وكان قد بلغ من العمر عتياً ، فانصرف إلى تهذيب ذوق هيلين وتلقينها اجمل أشعار فيرجيل الخالد وبيترارك العظيم واريستوت الفحل ودانت الملهم وكلهم من تلامذته النابغين ..

وأغلب الظن أن هيلين كانت تجيد اللغة اللاتينيـة . كانت كل الاشعار التي حفظتها تتحدث عن الحب ، ذلك الحب الذي يبدو لنا سخيفاً ، غير طبيعي ، اذا ما قسناه بمقاييس مفاهيمنا سنة ١٨٣٨ . كان حباً عذرياً لاينمو إلا في تربة مشبعة بالتضحيات الكبرى ، ولا يزدهر في غير جو عبّاق بالاسرار والخفايا ، دان ابداً من المـآسي المريعة والفواجع الرهيبة .

هكذا الحب الذي أوحي به إلى هيلين ، وهي لمّا تبلغ السابعة عشرة ، شاب يدعى جول برانسيفورت .

كان هذا الشاب أحد جيرانها ، يعيش في فقر مدقع ، يسكن منزلاً حقيراً مشاداً فوق الجبل ، على نصف مرحلة من المدينة ، في وسط انقاض آ اب ، على شفا هاوية عمقها مائة وخمسون قدمـاً ، مشجرة الجنبات ، معشوشبة السفوح ، تحيط بالبحيرة احاطة الحدقة ببؤبؤ العين ...

كان هذا البيت مظللاً بأوائل اشجار غابة فاكجيولا ...

لم يكن هذا الشاب الفقير يملك من حطام الدنيا غير نشاط وثاب ،

وطلعة طلقة ، ولامبالاة يجيبه بها فقره وبؤسه . وكل مانستطيع أن نقول فيه هو أنه كان يملك محياً معبراً ، قوي الاسر ، شديد التأثير في النفوس ، دون ان يكون وسيماً بالمعنى المعروف للوسامة .

كان هذا الفتى معدوداً من الابطال الذين ابلوا احسن البلاء تحت راية الامير كولونا فاعتبر من « الفرسان الصناديد » عندما عرّض نفسه ، في اكثر من موقف ، لاخطار ماحقه .

وبالرغم من فقره ، كان ، في نظر كل فتيات البانو ، أثمن فؤاد يمكن لفتاة ان تحلم باصطياده .

لقد فتحت كل الابواب امام هذا الفتى الرشيق غير انه لم يعرف من ضروب الحب سوى الخفيف ، العابر ، السريع الزوال . . .

هكذا كانت حاله الى ان عادت ، من دير كاسترو ، هيلين الكاعب الحسناء .

وحدث ، عندما انتقل الشاعر الكبير شيشينو من روما الى قصر كامبيريالي ليلقن الصبية الحسناء فنون الادب ، حدث ان وجه اليه جول ، وكان يعرفه ، رسالة شعرية باللغة اللاتينية تطرق فيها الى وصف السعادة الغامرة التي ستفيض على شيخوخة الشاعر عندما سوف تلتقي عينان رائعتا الجمال بعينيه ... وعندما تتفتح نفس على صفاء الماء الرقراق لتنهل من معين ادبه وتعب من ينبوع شعره

ان الغيرة والحقد الذين عصفا بفتيات عديدات كن يعقدن الآمال العراض على الظفر بالفتي الظريف ، اطاحا بكل الاحتياطات

التي عمد اليها جول لاخفاء وجده المتفاقم ، والتستر على غرامه المتعاظم ..

ولنشر إلى ان غراماً ينشأ بين شاب في الثانية والعشرين وفتاة في السابعة عشرة غير جدير باثارة الاهتمام العام لوأحيط بالحذر ووكب بالتعقل والحكمة .

ولم تمض اشهر ثلاثة حتى لفت نظر السيد دي كامبيريالي تردد الشاب جول برانسيفورت المستمر على حيه ومروره الدائم تحت نوافذ قصره (١) .

وكان على السيد دي كامبيريالي الا يقف مكتوف اليدين .. وجاء تصرفه متسماً بالصراحة والخشونة التين اورثهما ، في تلك البلاد ، نظام جمهوري لم يكن النظام الملكي قد تمكن بعد من استئصال شأفتهما . .

وفي اليوم الاول الذي رأى فيه الشاب ناداه وخاطبه دون مقدمات :

ـ كيف تتجرؤ على المرور دائماً من أمام قصري دون ان تتورع عن رشق نوافذ جناح ابنتي بنظراتك الوقحة أنت الشاب الذي لايملك ثوباً لائقاً يكسو به جسده ؟ لولا خشيتي تقولات الجيران

---

(١) مايزال هذا القصر قائماً حتى اليوم في وسط الشارع الكبير الذي يؤدي الى البحيرة . المؤلف

لتصدقت عليك بثلاث قطع ذهبية فتذهب الى روما وتبتاع لك رداء تكفي به عينيّ وعيني ابنتي مؤونة رؤية هلاهيلك الخلقة هذه ..

لقد بالغ والد هيلين ، ما في ذلك ريب : ان ثياب برانسيفورت لم تكن من الهلهلة كما وصف انما كانت مصنوعة من قماش بسيط وبالرغم من انها كانت شديدة النظافة فـــلا يخفى أنها قد استعملت فترة طويلة .

لشد ما اثرت هذه الاقوال الجارحة في نفس الشاب ! ولكم كان عميقاً الجرح الذي ألحقه السيد دي كامبيريالي بكرامة هذا الفتى !

وكظم جول غيظه ، وبلع الاهانة الساحقـــة وطوى كشحاً وعاد كليم الفؤاد ليحتجب في بيته فلا يظهر امام القصر أياماً طوالاً ..

كان البيت الذي ورثه جول عن ابيه واقعاً على خمس أو ست مراحل عن ألبانو كما ذكرنا ... ومعظم جدران هذا البيت العتيق مؤلفة من انقاض قنطرتين قديمتين لجسر عتيق خرب . واذا ماراد جول الهبوط من هذا المكان المرتفع إلى أحياء المدينـة العامرة ، كان يترتب عليه المرور أمام قصر كامبيريالي في ذهابه وايابه .

ولاحظت هيلين ، في الفترة الاخير ، انقطاع هذا الفتى الذي كان ، على حد زعم اصدقائه ، قد تخلى عن كل علاقة اخري كي يكرس نفسه للسعادة القصوى التي يبدو انه يتمتع بها عندما يقع نظره على هيلين ذات الجمال الخلاب والحسن الخارق .

وذات مساء صائف كانت نافذة هيلين مفتوحة والصبية الحسناء

تتنشق نسيم البحر البليل العابق في جو البانو رغم السهل الذي يفصل هذه الرابية عن البحر ويمتد ثلاث مراحل بينهما .

كان الليل بهيماً ، والصمت عميقاً حتى لتحس الاذن صوت سقوط ورقة من شجرة وكانت هيلين مستندة بمرفقيها إلى حافة نافذتها شاردة في مهامه خواطرها ، خواطر العذارى المتفتحة نفوسهن لتلقي نفحات الحب الاول كما تتفتح اكمام الازاهير ، عند انبلاج الصباح ، لارتشاف الندى المعطار ..

أتراها كانت تفكر بجول ؟ ...

واحست ، بغتة ، بشيء ما كأنه خفقة جناح طائر ليلي يعبر خفيفاً أمام نافذتها ...

لم يخطر لها قط ان هذا الشيء قد يكون صادراً عن احد عابري السبيل ذلك أن الدور الثاني من القصر حيث تقوم نافذتها يرتفع اكثر من خمسين قدماً عن الارض .

وخيل اليها انها ترى اضمامة ورد في هذا الشيء الغريب الذي راح يتأرجح يمنة ويسرة يلفه الصمت المطبق والظلام الدامس ، امام النافذة التي كانت الفتاة معتمدة على حافتها بمرفقيها .

وخفق قلب هيلين خفوقاً عنيفاً . وتفرست في الاضمامة فرأتها تبدو معلقة بطرف قصبة طويلة وجد جول عناء عظيماً في امساكها ثابتة امام النافذة لما كان من ليونة عودها وتأوده وقد عبث النسيم بها فتمايلت ..

كان الفتى يفترض وجود معبودته في ذلك المكان من النافـذة وهو يأمل ان ترى الاضمامة فتتناولها ..

وجمدت هيلين أمام النافذة وقد بلغ منها الاضطراب مبلغاً عظيماً . اتمد يدها الى الاضمامة المتأرجحة ؟ ولكن الا يعني ذلك انها ارتضت هذا الحب وابت نداء الفؤاد المعنى ؟

من المؤكد أن هيلين لم تشعر ، آنذاك ، بمثل الشعور الذي يخالج فؤاد فتاة من عصرنا أعدتها ثقافتهـــا العالية لخوض معترك الحياة . ولقد خيل اليها أن أقل حركة خليقة بأثارة انتباه ابيهـا وأخيها فابيو الموجودين في البيت تلك الساعة فقد يؤدي ذلك إلى الحاق أذى فادح بهذا الشاب فلربمـــا تعرض إلى إطلاق رصاص غدارتين على صدره .. وهيلين .. لشــــد ماتخشى الاخطار تحدق بجول ! ..

وفكرت الفتاة : بالرغم من أن معرفتها بجول ماتزال حديثـــة العهد الا أنها تشعر بانها تحمل له أعظم الحب بعد حبهـا لاهلها وعشيرتها .

وأخيراً ... وبعد لحظات من تردد ، مدت يدها وتناولت اضمامة الورد ... وتحسست يدها ، بين الازهار ، بطاقة مشدودة إلى ساق إحداها فانتزعتها بوجل وقد خفق فؤادها خفوقاً شديداً وخفت الى السلم لتقرأ ما حملت البطاقـة من كلمات أمام المصباح المشتعل أمام

صورة المادونا[1]

وهتفت تقول لنفسها عندما شعرت باحمرار السعادة يضرج محياها على أثر وقوع أنظارها على الاسطر الاولى التي حملتها البطاقة .

- يالي من رعناء ! لو رآني أحد لقضي علي ولعرضت هذا الشاب المسكين لافدح ضروب التنكيل تنزله به اسرتي ...

وقفلت راجعة إلى حجرتها فاشعلت مصباحها وأوصدت الباب بالمزلاج ..

يالها لحظة غزت عذوبتها قلب جول الذي كان قد قبع ملتصقاً بجذع إحدى أشجار السنديان الضخمة[2] في الحديقة وكأنه يختفي خجلاً أو وجلاً في قلب ذلك الليل البهيم !

وقرأت هيلين الأسطر التي خطها قلم العاشق المفتون والتي روى لها فيها ، ببساطة آسرة ، حكاية التوبيخ المهين الذي رماه أبوها بشواظه ، قال :

« صحيح أني أشكو البؤس وأعاني المسغبة ولعلك تتخيلين حالي

---

(١) Madone ومعناها « السيدة » ويقصد بها العذراء مريم .
المترجم

(٢) ماتزال اشجار السنديان اياها قائمة حتى اليوم أمام قصر كامبيريالي .
المؤلف

الضانكة والنتائج التي تترتب عليها . لست أملك غير بيت ربما وقع عليه بصرك قائماً تحت انقاض جسر ألب يحدق به بستان أحرثه بنفسي واغتذي من منتجاته . أضيفي إلى ذلك شجرة كرمة تغل ثلاثين ليرة ذهبية سنوياً ...

« لست أدري ، في الواقع ، لماذا علقك قلبي ... فمن المؤكد أن ليس لي حق بدعوتك لمقاسمتي بؤسي المرير وفقري المضني .. ومع ذلك فلا طعم للحياة بدون حبك ولا قيمة للعيش إذا حرمت نعمة الأمل .. بـــك ..

« انه لمن نوافل القول أن أصرح لك باني أضحي بحياتي الف مرة فداء لعينيك ! ان هذه الحياة ، لم تكن ، قسماً بحياتك ، على مثل هذا البؤس واليأس قبل عودتك من الدير .. فكثيراً ما كنت أنسج من أحلامي عالماً غير هذا العالم .. عالماً كله منى براقـــة ، وأماني معسولة ..

« وهكذا أستطيع أن أقول أن رؤيتي للسعادة قد أورثتني كل هذا الشقاء .. كوني على ثقة أكيدة من أن أحداً في العالم ما كان ليستطيع توجيه الاهانة التي وجهها الي أبوك لأن خنجري رهيف متأهب أبداً للثأر لكرامتي ، فانا ، بشجاعتي وسلاحي ، أجد نفسي مساوياً لأي امريء في هذا العالم مهما سمت مكانته وعلت مرتبته . لاشيء ينقصني مادام لي هذان العنصران : الشجاعة والسلاح !

« أمّا الآن فقد تغيرت الحال غير الحال .. لقد عرفت الخوف !..

لقد أدركني التردد لاشيء سوى أن خصمي كان .. أباك ..

« هـل تحتقرينني ؟ ام تراك تشفقين علي ؟ .. أم تستصغرين شأني كما استصغره أبوك لأن ثيابي ليست على أبهة وفخامة ؟

« هل أطلت عليك ؟ .. استودعك الله ..ولك أن تثقي من إنه كلما دقت ساعـــة دير الكبوشيين منتصف الليل ، فانا ساهر ، فوق الرابية ، ارنو دون فتور إلى نافذة في قصر أبيك أزعمهـا نافذة غرفتك كما يرنو العابد القانت إلى هيكل قدس الاقداس ..

« امّا إذا كانت أقوالي الصادقة هذه قد وجدت بعض الصدى في فؤادك ، أمّا إذا كنت لا تحتقرينني كما يحتقرني أبوك ، فارمي إلي زهرة من زهرات الاضمامة يكن لي منهـــا ايماضة أمل عزيز مرتقب ... »

قرأت هيلين هذه الرسالة مراراً وتكراراً ..

مالعينيها تمتلآن بالدموع قليلاً قليلاً ؟

كانت تتأمل الاضمامة الرائعة بحنو وانعطاف ..

ومدت يدها ، مهتاجة العاطفة ، وحاولت انتزاع احدي الزهرات المشدودة بشريط حريري فلاقت في انتزاعها عناء ..

وانتابتها ندامة ..

تقول فتيات روما أن انتزاع وردة من اضمامة تقدمها يد الحبيب شؤوم على الحب وايذان بذهاب ريحه ...

وطال بهيلين ترددها .. وخافت أن ينفد صبر جول فنهضت إلى

نافذتها فما بلغتها حتى ادركت أنها تظهر ظهوراً جلياً فالمصباح يغمر الحجرة بنوره غمراً .

لم تعرف هيلين ماينبغي لهـــا أن تفعل .. أتشير الى العاشق الولهان بيدهـا دلالة الرضى ؟ .. ولكن ليس ثمـة اشارة لاتحمل اكثر من معنى وتحتمل أكثر من تفسير .. أفلا يجوز أن يفهم عـكس ما قصدت ؟

وعادت تبتعد عن نافذتها خفيفة الخطو وقد تضرج بدماء الخجل محياهـــا .

ومر الوقت .. وبغتة خطرت لها فكرة القت بهـا في بحران عظيم :

سوف يتصور جول انهـــا ، كأبيها ، تحمل له احتقاراً واستصغاراً ..

وعاد الذهول يغمر نفسها .. وبغتة وقع نظرها على دميـــة من رخام ثمين فتناولتها ولفتها بمنديل لها ... وبحركة لا واعية طوحت بها من النافذة فاستقرت عند قدمي السنديانة المقابلة للنافذة ... ثم انها ابدت اشارة عبرت عن رغبتها في ذهاب الشاب المنتظر على احر من الجمر .. وسمعته يتفذ ارادتهـا دون أن يحـاول خنق وقع خطواته ..

واستمرت هيلين واقفة إلى نافذتها ، محدقة بالظلام العميق الذي ابتلع الشاب .. ولم يطل بها الامر حتى طرق اذنيها غناؤه مردداً

اناشيد الوجد والهيام فاشارت اليه مودعة وأوصدت نافذتها وأطفأت مصباحها ...

ودأب الشاب العاشق على تقديم الازهار وارسال الرسائل في الغداة والايام التالية منتهجاً نفس النهج .

ولكن ، لما كانت الاسرار سرعان ماتذاع في القرى ، ونظرا لأن هيلين كانت أغنى فتاة في المقاطعة يطمع بها الطامعون ، ويطمح اليها الطامحون ، لكل هذه الاسباب جاء من يهمس في اذن السيد دي كامبيريالي أن ثمة من يرى عند انتصاف كل ليلة ، النور مشتعلاً في حجرة ابنته الآنسة هيلين . والاغرب من ذلك ان نافذة هـــذه الحجرة تبقى مفتوحة وكأن الفتاة لاتخشى أي طاريء ليلي .

وسرعان ماراح السيدديكامبيريالي يهيء غدارته وغدارة ابنه ... وما ان دقت الساعة الحاديه عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين حتى كان الاب يهيب بابنه ثم يخرج الاثنان محاذرين ، لايحدثان الا اقل ضجة ممكنة ، الى شرفة حجرية كبيرة تمتد امام الدور الاول من القصر ، تحت نافذة هيلين بالضبط .

كان حاجز الشرفة الحجري يغطي الرجلـــين حتى وسطيهما ويحميهما ، عند الاقتضاء ، من نار الغدرات التي قد تصوب من الخارج .

ودقت الساعة معلنة انتصاف الليل . وبلغت آذان الاب والابن ضجة خفيفة انبعثت من تحت الاشجار التي تظلل الشارع ، بمواجهة

القصر ... امّا ما ملأها دهشة فعدم ظهور أي بصيص من نور في نافذة هيلين .

كانت هذه الفتاة ، حتى ذلك اليوم ، بسيطة ساذجه بساطة الاطفال وسذاجتهم ينم عن كل ذلك نشاط ومرح وحيوية اتصفت بها ... الا ان كل هذا قد تغير وتبدل بعد ان لمست أنامل الحب السحرية شغاف قلب العذراء الخلية فهزت كيانها هزاً عنيفاً . .

كانت موقنة من أن أقل بادرة مغفلة تبدر عنها جديرة بتعريض حياة حبيبها الغالي لاشد ضروب الخطر .. بل للهلكة المحققة . . .

واذا حدث وقتل سيد خطير كأبيها شخصاً فقيراً مثل جول برانسيفورت فلا تكلفه فعلته هذه اكثر من اضطراره للتغيب عن المدينة مدة ثلاثة أشهر يقضيها في نابل بينما يضطلع اصدقاؤه في روما بتسوية القضية ... وينتهي كل شيء بتقديم مصباح فضي قيمته بضع مئات من الليرات ، كفارة عن ذنبه الطفيف ، الى مذبح المادونا كما كانت العادة تقضي .

كانت هيلين قد لمحت ، ذلك الصباح ، الاعتكار الذي قلب سحنة أبيها فادركت أن غضباً مكبوتاً يجيش في اعماق صدره جيشان بحر يوشك ان يعصف به اعصار مدمر ..

وخيل اليها انها وثيقة العلاقة بهذه الغضبة المنذرة بالويل والثبور ..

وعمدت هيلين الى الحيلة علها تدرك السبب الحقيقي أو العزم الذي عزمه ابوها والامر الذي يبتيه فمشت الى الغدارات الخمس

البديعة التي كان يحتفظ بها أبوها ونثرت فوقها بعض الغبار كما فعلت مثل هذا الفعل بالخناجر والسيوف المعلقة ابداً بالقرب من سرير الاب.

وامضت هيلين يومها خدينة مرح مجنون يخفي قلقاً عميقاً أكولا كانت لاتنفك تطوف ارجاء القصر صاعدة هابطة تقفز من نافذة الى اخرى آملة أن تسعد برؤية جول فتبدي له اشارة سلبية يفهم منها ان في الجو اعتكاراً مكهرباً غير أن شيئاً من هذا لم يتحقق لان الفتى المسكين كان مازال يشكو المهانة الناغرة التي ألحقها به والد حبيبته فآلى على نفسه الا يعود ابداً للظهور في ألبانو في وضح النهار وقد نفذ عزمه هذا فكان لايقصد المدينة الا اداء لفريضة الصلاة كل يوم احد في الكنيسة المجاورة .

. . .

كانت أم هيلين تعبد فتاتها عبادة ولا تعرف كيف ترفض لها طلباً وقد خرجت بها هيلين ذلك اليوم ثلاث مرات ولكن عبثا فعلتا فهيلين فهي لم تقع على اثر لجول .. وآخيراً ادركها اليأس المرير فآبت تجرثر اذيال الخيبة الخانقة ..

ماذا حل بهيلين عندما قصدت ، مساء ذلك اليوم ، غرفة اسلحة ابيها فوجدت الغدارات محشوة ، ممدة ، والسيوف قد رفعت من اماكنها فوق الجدار ؟ ..

لم تجد الفتاة المسكينة مخففاً لقلقها المميت الا في حرصها كل الحرص على التظاهر بالهدوء الكلي فكأنها لاتشك في أي شيء ..

وانسحبت إلى مخدعها في الساعة العاشرة مساء وما أن ضمتها الحجرة حتى أوصدت بابها بالمزلاج وكان هذا الباب يفتح على حجرة امها ، وأقامت تصغي ، بقلق متفاقم ، إلى توالي دقات الساعة تلك الدقات التي كانت تدني الساعة الحرجة المريعة ...

لم يكن لها أن تنحى باللائمة على قلبها الذي علق بحب جول بمثل هذه السرعة الخاطفة الامر الذي يجعلها ، في نظره ، أقل جدارة بحبه .

لاريب في أن هـذا اليوم العصيب الذي عاشته هيلين قـد دفع بحبها لهذا الشاب شوطاً بعيداً ما كان هذا الحب ليقطعه خلال ستة أشهر طويلة .

وقالت هيلين تخاطب نفسها : ما جدوى الكذب والتمويه . إني أحبه بكل مافي روحي من قوة .

ودنت من النافذة والتصقت بجدارها بشكل يتيح لها الرؤيـة دون أن يعرضها للناظر المتطفل .. ورأت ، في الساعة الحادية عشرة والنصف ، بـكل وضوح ، أباها وأخاها كامنين في الشرفة الحجرية فوق نافذتها ...

ولم تلبث أذنا هيلين المرهفتين أن التقطتا بكل جلاء وقع قدمي حبيبها وقد توقف تحت السنديانة الضخمة ولشد ما أفعم فؤادها حبوراً عندما لحظت أباها وأخاها لم ينتبها إلى هذه الحركة : كان لابد من رهافة حس المحب لادراك مثل هذه النأمة الواهية ..

قالت في نفسها : قد يقتلانني ولكن لاينبغي لرسالة هذا المساء أن تقع في أيديهما مهما كلف الامر فان هما اطلعا عليهـا أوديا بحياة جول المسكين لا مشاحة .

ورسمت إشارة الصليب وتشبثت بحديد نافذتها ومالت بجسمها إلى الخارج قدر ماستطاعت ولم يمض أكثر من ربع دقيقة حتى كانت الاضمامة المعلقةإلى طرف القصبة الطويلة تمس ذراعهـا فبادرت إلى انتزاعها بلهفة عنيفة فاصطكت القصبة بحافة الشرفة الحجرية فانبعث عنها صوت حاد وفي نفس اللحظة دوى طلقان ناريان من غدارتين ثم خيم صمت عميق .

لم يستطع فابيو أن يميز ، في عتمة الليل ، ما اذا لم يكن الشيء الذي صدم الحافة حبلا يتدلى عليـه جول ليهبط من حجرة أخته ولذا نراه قد وجه ناره إلى الشرفة فاصاب حاجزها الحديدي وتركت الرصاصة فيه أثراً شوهد في اليوم الثاني .

أما طلقة السيد دي كامبـــير يالي فقد وجهت إلى الشارع ، تحت الشرفة مباشرة ، إلى حيث كان يقف جول وقد نمت عن مكانه ضجـة أحدثها وهو يحاول إمساك القصبة مثبتة ريثما تستطيع حبيبته انتزاع الاضمامة . ولو لم يبادر الفتى إلى الاختفاء تحت نتوء الشرفة لصرعته الرصاصة لا جرم ..

وأعاد فابيو حشو غدارته ثانية دون أن يأبه باقوال والده وعدا إلى حديقة المنزل فولج باباً يفضي إلى شارع مجاور ثم مشى بخطى

خفيفة كخطى الذئب وراح يتفحص عابري السبيل الذين كانوا يسيرون تحت نوافذ القصر ...

ووجد جول نفسه ، وهو قابع تحت جذع السنديانة ، على عشرين خطوة من فابيو .

كان جول ، هذا المساء ، قد جاء مدججاً بسلاحه ...

وانحنت هيلين فوق حاجز النافذة والرعشة تهز أوصالها هزاً عنيفاً خوفاً على حبيبها ورفعت صوتها تخاطب أخاها بصوت جهوري قائلة :

- فابيو .. هل أجهزت على السارق ؟

فجاءها جوابه : لاتعتقدي أن حيلتك السافلة تخدعني ... لك أن تهيء دموعك فسوف أقتل هذا السافل الذي يتعرض لنافذتك ..

وفي هذه اللحظة سمعت هيلين أمها تقرع باب غرفتها فاسرعت تفتح قائلة انها لاتدري كيف وجد هذا الباب مغلقاً ...

فقالت أمها : دعيني من المهازل ياملاكي العزيز . أبوك في سورة غضبه جدير بقتلك ! تعالي أرقدي معي في سريري وإذا كنت تحملين رسالة فهاتيها فانا أخفيها عن عينيه . فقالت هيلين : هي ذي الاضمامة والرسالة مخبوءة بين ازهارها .

. . .

ما أن اضطجعت الام والبنت في السرير حتى دخل السيد دي كامبيريالي إلى حجرة زوجته يتميز غيظاً وقد راع هيلين أن ترى أباها على شحوب الاموات يتحرك بتؤدة شخص اتخذ موقفاً حازماً بعد صراع مرير ..

لاريب في انه رأى هيلين في سرير أمها فتجاهل ذلك أو بيّت أمراً آخر .. أمّا المؤكد فهو انه لم يسأل عنها ولم يأت على ذكر اسمها ...

وفكرت هيلين : لقد قضي عليّ ...

وقال الوالد وهو يعبر بسرير زوجته كي يدلف إلى حجرة ابنته ، قال ببرود شديد :

ـ اننا نفرح عندما نرزق أولاداً ولكن ينبغي لنا أن نبكي إذا ما كان هؤلاء الاولاد بنات ! ايها الله العظيم ! أممكن هـذا ؟ ! أممكن أن تؤدي رعونتهـا الى تلطيخ شرف رجل قطع ستين من مراحل عمره دون أن يلصق به ما يشين !...

وولج غرفة فتاته ...

وهمست هيلين في اذن أمها :

ـ لقد قضي عليّ .. كل الرسائل تحت غطاء المذبح الصغير القائم بالقرب من النافذة ..

وقفزت الام من السرير فوراً وخفت تلحق بزوجها ..

ورأت ان تثير حنقه أكثر مما كان مثاراً عليها تصرفه عن

البحث والتنقيب وقد نجحت في ذلك إلى أبعد حدود النجاح ذلك أنها عمدت إلى التفوه بكلام مثير مجرد عن كل حكمة وتعقل عرفت بها .

وراح الشيخ ، في سورة غضبه ، يحطم كل ما وقعت عليه يداه واثناء هذا الهياج استطاعت الام استخراج الرسائل من مخبئها دون أن يفطن زوجها إلى ذلك ...

بعد ساعة كان السيد دي كامبيريالي قد انسحب إلى حجرته المجاورة لحجرة زوجته ..

وخيم على القصر هدوء عميق ...

وقالت الأم تخاطب ابنتها :

ـ هي ذي الرسائل . لا أريد قراءتها .. وقد رأيت ما كان يمكن أن تكلفنا ! .. لو كنت مكانك لاحرقتها . وداعاً . عانقيني

وعادت هيلين إلى حجرتها تذرف دموعاً سخينة ...

لقد خيل اليها ، منذ أن سمعت أقوال أمها ، انها لم تعد تحب جول ... ثم انها تأهبت لاحراق رسائله .

ولكنها لم تستطع منع نفسها ، قبل احراق تلك الرسائل ، من قراءتها مرة ومرة ومرة إلى ان متع النهار ، وتكبدت الشمس السماء ، وعندئذ فقط حزمت امرها على تنفيذ خطة سلمية .

وفي الغداة ، وكان يوم أحد ، اخذت هيلين طريقها الى الكنيسة تصحبها امها ولحسن الحظ لم يرافقها الاب ... واول شخص وقع

عليه نظر المرأتين كان جول برانسيفورت ... وبنظرة واحـــدة استوثقت هيلين من انه لم يصب باذي في معركـة الامس وكان هذا الامر مدعاة لغمرها بسعادة عارمة أبعدت عنها ذلـــك القلق المضوض الذي انتابها اثر حادثة الليلة الفائتة .

كانت هيلين قد هيأت ، قبل قدومها الى الكنيسة ، اربـع او خمس بطاقات من اوراق مهرأة ملطخة بالوحل ، مبتلة بالمـــاء ، كتلك التي توجد في باحات الكنائس ، وكتبت عليها جميعاً تحذيراً واحـــداً :

« لقد اكتشفوا كل شيء ماخلا اسمه . لاينبغي له أن يعود للظهور في الشوارع فهم يجدون في اثره ».

وتركت هيلين احدي هذه القصاصات تسقط ثم انها اهـابت بجول ، بنظرة معنوية ، أن دونك القصاصة فالتقطها ... وسرعان ماصدع الفتى بامر العينين المعبودتين واسرع يختفي ...

وعندما عادت هيلين الى القصر ، بعد ساعة ، وجدت فوق السلم قطعة ورق لفتت نظرها بشبهها العظيم بالقصصات التي استعملتها ذلك الصباح فاختطفتها دون ان تلفت حتى انظار امها ...

وقرأت فيها : « سوف اعود بعـد غياب قسري يستمر ثـلاثة ايام في روما .. »

لشد ما عجبت هيلين لهذا السفر المفاجيء . وفكرت في نفسها :

ـ أتراه يخشى طلقات غدارة اخي فابيو ؟

الحب يغفر كل شيء ماخلا البعاد عبر القسري ، هـذا العذاب الذي يلوع قلوب المحبين ويحيل حلمهم الحلو الندي شكوكاً ضارية وريباً قاسية .

كانت هيلين ، خلال الايام الثلاثة التي قضاها حبيبها متغيباً ، تتساءل :

ـ ولكن ، رغم كل ذلك ، هل استطيع تخليص فؤادي من شباك حبه ؟

وبغتة اختفت كل احزانها ليحل محلها فرح مجنون : فقد رأته في اليوم الثالث ، رأد الضحى ، يسير في الشارع ، امام قصر ابيها . كان رافلاً في حلة جديدة ، قشيبة ، تكاد تكون فخمة فاخرة !

ان نبل طلعته ، وبراءة محياه ، وشجاعة بدواته ، لم تظهر قبل ذلك قط على مثل هذه الابهة وهذا الرونق . . وكذلك لم يسبق قط ان تحدث الناس ، قبل هذا اليوم ، في البانو ، عن جول ، كما يتحدثون الآن ..

كان الرجال ، والشبان منهم خاصة ، يرددون الاقاويل ويشيعون الاراجيف ويسلقونه بألسنة حداد . امّا النساء ، والفتيات منهن خاصة ، فما كن يدخرن امتداحاً لطلعته الطلقة ، ورجولته الكاملة ..

امضى جول سحابة يومه مطوفاً ارجاء المدينة وكأنه يستعيض عن ايام عزلته القاسية ، تلك العزلة التي فرضها عليه بؤسه وضيق

ذات يده .

وككل عاشق في ذلك العصر ، كان جول يخفي تحت ردائه الجديد اسلحة مختلفة : حنجراً ومديـــة وقميصاً من زرد يرتديه تحت الثياب ...

كان جول يؤمل ان يلتقي بهيلين هذا اليوم ولذا خرج يطوف في المدينة هارباً من الوحشة القاتلة التي كان يحسها كلما خلا الى نفسه في بيته الصغير الحقير ..

...

كان رانوس ، احد جنود والد جول القدامى ، قد اشترك مع القائد برانسيفورت في عشرات المواقع كما رافقه في اعماله الحربية في جيوش مختلفة كثيرة كان آخرها جيش ماركو سيارا . وقد تبع هذا الجندي الوفي قائده عندما اضطر هذا الاخير الى الانزواء نتيجة لما اصابه من جراح في مختلف انحاء جسمه .

وكان للقائد برانسيفورت دوافع كثيرة ، ومبررات قوية ، تحمله عن الابتعاد عن روما ففيها يكون مضطراً الى مقابلة ابناء كثيرين من القواد الذين لاقوا حتفهم على يديه .. كما كان يقلقه ان يضع نفسه تحت رحمة السلطة الحاكمة .. ولكل ذلك فضل الانزواء في البانو .. ولكنه ، بدلاً من ان يبتاع او يستأجر سكناً في المدينة فضل البعد عن الضوضاء فبنى منزلاً يتيح له مراقبة القادمين عن

بعد . ولقد وجد في انقاض ألب ضالته المنشودة . فمن الميسور له ، من هذا المكان ، الاختفاء في الغابة المجاورة عند الحاجة دون ان يفطن الى ذلك الزائرون غير المرغوب فيهم ، وفي الغابة يجد ابداً الأمان لدى حاكمها الامير فابريس كولونا ، صديقه وسيده القديم .

لشد ما اهمل القائد برانسيفورت مستقبل ولده ! فحين تخلى هذا المحارب عن عمله لم يكن قد تجاوز الخمسين الا ان جسمه كان منهكاً تملأه الجراح ، وحسب انه قـــد يعيش بضع عشرة سنة اخرى ، فاذا مابنى لنفسه بيتاً ، وانفق كل سنة عشر ماجمعه من اسلاب في حروبه ، كفاه مدخره الى ان يقضي نحبه ويلاقي وجه ربـــه ! ...

وابتاع الكرمة التي تغل ثلاثين ذهباً وجعلها باسم ابنه كجواب على مزحة سمجة اسمعه اياها بورجوازي جلف من البانو ذات يوم عندما قال له انه يجب عليه ان يكون من كبار الملاكين كي يحق له تقديم النصح الى ابناء العائلات العريقة في المدنية كما كان يفعل. وكان الرجلان قـــد اشتبكا في نقاش حام حول موضوع العراقة والانساب ! ..

وابتاع القائد الكرمة واعلن انه سوف يبتاع كروماً اخرى .. وبعد ايام التقى بهذا الرجل الذي تحداه ، في مكان قفر ، فاجهز عليه بطلقة من مسدسه !

وقضى القائد نحبه بعد ثمـــان سنوات تمضت على هذه الوتيرة

وخلف ابنه جول وحيداً في هذا العالم . وكان رانوس ، مساعد الاب ، يحب جول حباً يقرب من العبادة .. غير ان هذا الرجل الذي اعتاد حياة الجندية كان كلما سئم البطالة عاد الى الخدمة في جيش الامير كولونا واكنه لم يهمل زيارة جول والتردد عليه فترة بعد اخرى فهو يعتبره بمثابة الابن ويدعوه ولداً له .

وصحب الفتى مرة ليشترك معه في حصار قلعة بيتريللا حيث دار قتال ضار شديد . وقد لمس شجاعة هذا الفتى اثناء هذه الموقعة فقال له :

ـ لابد من ان تكون أبله بل مجنوناً كي ترتضي العيش في البانو كاحقر وافقر انسان فيها بينما تستطيع ، بفضل شجاعتك واسم ابيك ، ان ترقى الى مصاف اللامعين من « جنود المغامرات » فلا تلبث الثروة ان تنقاد اليك انقياداً .

لقد اورثت هذه الاقوال نفس جول اضطراباً وكان هذا الفتى في الواقع شجاعاً مقداماً ومما زاد جرأته نمط الحياة المنطوية المنكمشة التي كان يحياها في بيته القفر وكان ذكي الفؤاد على نصيب من ثقافة تلقاها على يد كاهن علمه اللاتينية غير ان أباه لم يهتم الاهتمام الكافي بتثقيفه هو الذي لا يأبه بالعلم ولا يكترث بالثقافة .

كان جول ، قبل ان يتعلق فؤاده بحب هيلين ، يعبد الحرب الا" ان طبعه السمح كان ينفر من السلب والنهب والاعتداء دون ان يعرف لذلك سبباً معقولاً . وكانت ميوله هذه تبدو ، في نظر

ابيه وصديقه رانوس ، مضحكة ، سخيفة ، بلهاء ، كتلك المقطوعات القصيرة التي تتخلل مأساة نبيلة بغية الترويح عن المتفرجين .

كانت خصاله الطيبة ، التي ثقف نفسه بها في عزلته وانطوائه ، الى أن أحب هيلين ، كانت قد غدت سوطاً لاذعاً يعذب نفسه مرير العذاب ..

ان هذه النفس التي كانت خلية في الماضي ، غمرتها الشكوك وقضت مضجعها الوساوس ومما زاد الطين بلة ان هـذا الفتى الخير الطبع لم يعد يملك الجرأة على استشارة احد في امر هذه الشكوك والريب لأنه رأى الكل يتنكر له ويصدف عنه فترك للوجد والبؤس والريب ان تغمر كيانه غمراً ...

ما الذي لايقوله السيد دى كامبيريالي اذا ما علم ان جول قد انخرط في سلك « جنود المغامرات » ؟ سيكون في ذلك الضربة القاضية والطعنة النجلاء لكل أمل بتسوية الامور الى أحسن .

لطالما اعتمد جول على الجندية كممل مضمون يعينه على معاناة الحياة كلما فرغ وفاضه من حطام الحياة ! ..

لقد عثر على سلاسل ذهبية وحلي اخرى في صندوق لابيه فراح ينفق اثمانها مستعيناً بذلك على تصريف شؤونه يوماً فيوماً .

لقد فكر جول ، هو الفقير الذي لايملك شروى نقير ، فكر في اختطاف معبودته ابنة السيد دي كامبيريالي بعد ان وثق من ان قبض الريح اسهل من حصوله على الزواج منها بموافقة ابيها المتغطرس

المتجبر واخيها العنيد الفخور المتعالي .. واذا كان تردد في اقدامه على هذه الفعلة فما ذلك الا علماً منه بان اباها حري بحرمانها من كل ثروته الطائلة فتكون النتيجة تعريضها ، هي الفتاة المدللة المرفهة ، الى معاناة حياة بائسه مريرة يحيل الفقر نور السعادة فيها ظلاماً دامساً وشقاء عضوضاً .

ومشكلة اخرى كانت تشغل حيزاً كبيراً من تفكير جول : انى يستطيع الاقامة مع حبيبته ؟ في أية مدينة يحطان الرحال ؟ وان هو اقام معها ، بعد اختطافها ، في احدى المدن القريبة الا يعرضها لانتقام اسرتها او اختطافها منه والتنكيل بها ؟

ليته استطاع الاقدام على قتل الشيخ السليط دي كامبيريالي يوم وجه اليه الاهانة الصافعة ! .. لقد تردد .. وتركه حياً .. فكان عمله هذا شر ما استطاع الاقدام عليه . ولكم امضى الليالي الطويله خدين الارق والسهاد وجليس الهموم والاحزان منهل الدموع ، معتصر الفؤاد ..

واخيراً حزم امره على استشارة رانوس صديقه الوحيد في هذا العالم .. ولكن ، ترى ، هل سيفهمه هذا الصديق ويقدر موقفه الدقيق حق قدره ؟

عبثاً بحث جول عن رانوس في ادغال غابة فاكجيولا .. وعلم ان هذا الصديق معسكر مع فرقته على طريق نابل فمضى اليه .

وفي المعسكر اجتمع الى قائد اسباني اسمه رويز دافالوس كان يرسم

خطة لمهاجمة روما بطريق البحر لأنه كان واهي الثقـــة « بجنود المغامرات » من جيش الامير كولونا .

وعثر جول على رانوس اخيراً وروى له قصته فقال له القـائد الصديق :

ـ صف لي هذا السيد دي كامبيريالي بدقـة كي لايكلف تعنته وتجبره حياة احد المواطنين المساكين من البانو . واليك ما ارى : ما ان نفرغ من مهمتنا ههنا حتى تمضي انت الى روما وتجهـد في الظهور ثمة في كل ساعات النهار وفي الاماكن العامـة كي تبعـد عنك كل شبهة قـد تحوم حوالك بسبب حبك لهذه الفتاة وسوف اتولى انا ماتبقى ...

ثم ان رانوس اندفع يقرع جول ويلومه على هذه الحياة الخاملة التي يحياها دون هدف او خطة للمستقبل .

واضطر جول امام لومه وتعنيفه الى الثورة :

ـ اذا كنت تعتقد اني جئت اسألك عوناً من سيفك فانت على خطل فادح . وأنا الآخر لي سيفي وهو جدير باحقاق حقي في كل مناسبة !

جئت اطلب منك نصيحة حكيمة ليس الا .

وانتهى رانوس الى القول :

ـ انت شاب حديث السن . لم تبلُ الحياة بعد . ولم يتعرض جسمك لضربات السيوف . لقد لحقتك اهانة صافعة . واعلم ان

رجلاً يهان خليق بالاحتقار ليس من الرجال فحسب بل من النساء ايضاً !..

وطلب جول من صديقه الكبير فرصة تتيح له سبر اغوار عواطفه واستجلاء حقيقة ميول فؤاده ..

وغادر جول صديق أبيه وقد عظمت ثقته بنفسه رغم قوارص اقوال هذا الصديق الذي كان يأمل الاشتراك في المواقع القادمة التي سوف يذكيها الجنرال الاسباني ، ويتمنى لو يشترك جول الشجاع الابي فيكسب الامجاد ويجر الغنائم ويظفر بالصيت الذائع والاحترام السامي .

ما ان عاد جول الى بيته حتى قصد حبيبته ، عند انتصاف الليل وتعرض ، كما رأينا ، الى طلقات النار من غدارة السيد دي كامبيريالي .

وما آب الى منزله بعد مغامرته الليلية تلك حتى فوجيء بزيارة رانوس ومرافقه وكانا عائدين من ضواحي فالايتري .

وابدي رانوس رغبته في رؤية الصندوق الحديدي الذي كان مقراً لغنائم صديقه القديم القائد برانسيفورت .. وقال عندما لم يجد فيه سوى ليرتين ذهبيتين :

ـ انصحك ياجول ان تنخرط في سلك الكهنوت فانت تملك كل الفضائل المؤهلة لرجال العبادة القانتين : حب الفقر ، التواضع الاستخذاء ونكران الذات ... بدليل تغاضيك عن اهانة جارحة

وجهها اليك احد اثرياء ألبانو على رؤوس الاشهاد ... وبعد، لاينقصك سوى فضيلتين اخريين : اللؤم والشراهة !

واسقط رانوس في الصندوق ، رغم مقاومة جول واستنكاره ، خمسين قطعة ذهبية ثم انه خاطب ابن صديقه قائلاً :

ـ اقسم لك بشرفي قسماً غير حانث ، انه ، ان لم يوارَ السيد دي كامبيريالي في رمسه بعد شهر باحتفال جدير بنبله ، حضر هذا العريف الذي تراه مع ثلاثين من جنودي الاشداء ودمروا بيتك هذا واحرقوا أثاثه الحقير .. لاينبغي لابن القائد المقدام برانسيفورت ان ينحط الى هذه الدركة في التخاذل والجبن محتجاً بحب ابله وغرام سخيف : اعلم ياجول ان شرف المرء وكرامته فوق عواطفه وشهواته !

وعندما علم رانوس بأن الشيخ دي كامبيريالي وابنه قد اطلقا النار على جول استشاط غيظاً وقد بذل جول جهداً بالغاً كي يحول دون صديق ابيه والمضي لمهاجمة القصر وقتل فابيو او اختطافه على الاقل.. واخيراً اقتنع بان قتل هـذا الفتى لايجدي فتيلاً والخير في قتل الشيخ المسؤول عن كل هـذه الفتن خاصة انه لم يعد يصلح الا لسكنى الرمس في العالم الآخر .

وفي غداة هذه الاحداث عاد رانوس أدراجه الى الغابة بينما إتخذ جول سمته نحو روما تهدهده فكرة شراء ثياب جديدة . وفكر انه ينبغي لهيلين ان تعرفه على حقيقته .

قد يبدو تفكير هذا الفتى غريباً بالنسبة لعصره لأن شاباً مثله خليق بالتفكير فقط في المتعة التي يجتنيها من حب هذه الكاعب الحسناء فلا يتردد في اختطافها دون ان يحسب حساباً لما قد يحل بها بعد مضي ستة اشهر ويكون قد قضى منها لبانته وروى غليل اشواقه المتقدة ووجده اللاهب المضني .

وعندما عاد الفتى الى ألبانو ، رافلاً في حلته القشيبة ، علم من صديقه الشيخ سكوتي ان فابيو قد غادر المدينة ممتطياً صهوة جواده قاصداً املاكاً لأبيه واقعة على ثلاث مراحل ، فوق شاطىء البحر .
ولم يلبث ان شاهد السيد دي كامبيريالي يتجه ، بصحبة احد القسس ، نحو البحر متخذاً الطريق الجميلة المظللة بالسنديان الاخضر الذي يتوج المرتفعات المحدقة ببحيرة ألبانو ..

وبعد عشر دقائق دخلت امرأة عجوز الى قصر كامبيريالي بحجة بيع ثمار بديعة الى سكانه وكان اول شخص التقت به الوصيفة الصغيرة ماريتا موضع ثقة هيلين والمؤتمنة على سرها ..

وتضرّج وجه الوصيفة حتى منابت شعرها عندما سلمتها العجوز اضمامة رائعة من الازهار تضم رسالة طويلة بالغة الطول روى فيها جول كل ماتمّ معه منذ الليلة التي تعرض فيها لطلقات الغدارات ..
كانت لهجته في رسالته جد متواضعة فهو لم يتطرق لذكر شيء عن نفسه من دواعي الافتخار كأن يقول لها إنه إبن قائد إشتهر ببسالته واقدامه وانه هو نفسه قد برهن عن شجاعة خارقة في

مواقع عدة .. لم يقل لها شيئاً مما كان جديراً بقوله اي شاب آخر من ابناء عصره .

مسكين جول بِرانسيفورت فلقد كان يخيل اليه دائماً ان الاهانات التي ألحقها به السيد دي كامبيريالي تطن في أذنيه طنيناً مروعاً .

ولا نرى مندوحة من الاشارة هنا إلى أن فتيات القرن الخامس عشر القريبات العهد من النظام الجمهوري كن يفضلن الشاب لاعماله وصفاته ومواهبه لا للثروات والالقاب التي اورثه إياها آباؤه وأجداده او الاعمال المجيدة التي اتى بها هؤلاء . ولكن بنات الشعب هن خاصة من يحملن مثل هـذه الافكار .. أما اللواتي ينتمين الى الطبقات المترفة الغنية فتختلف نظرتهن بعض الاختلاف ..

وانهى جول رسالته بهذه الكلمات :

« ولست أدري ما اذا كانت الثياب القشيبة اللائقة التي احضرتها من روما قد انستك الاهانة القاسيـة التي لحقتني سابقاً من قبل شخص تكنين له الاحترام .. وان تلك الاهانة لم تصبني بسبب عمل مخجل ارتكبته انما لأن مظهري لم يكن على سناء يضارع مظاهر علية القوم .. كان باستطاعتي ان انتقم ، بل كان ينبغي لي ان انتقم ، فشرفي يحتم علي ذلك ، واذا كنت قد ترددت في الاقدام على هذه الفعلة فلأني قد حسبت كل حساب للدموع التي سوف تذرفها عيناك المعبودتان ..

« ان المرء ، مهما يكن فقيراً ، يستطيع ان يطوي جوانحه على

عواطف نبيلة ... وأرى اخيراً ان اطلعك على سر هائل لا اجد أي حرج في اطلاع اية امرأة اخرى عليه ولكني لست ادري لما احس الرعشة تنتابني وانا مقدم على اطلاعك عليه . ان هذا السر جدير بتدمير الحب الذي تحملينه لي في لحظة واحدة . ان أي احتجاج لايغني عن الواقع شيئاً . لكم أردت أن اقرأ في عينيك الاثر الذي يخلفه هذا البوح . أود لو أراك ، ذات يوم ، عند هبوط الظلام ، في الحديقة الواقعة وراء القصر . اختاري يوماً يكون فابيو وابوك متغيبين فيه .

« اني جد مقتنع بانها ، رغم احتقارها العظيم لشخص حقير اللباس ، ليس من حقها حرماني من لحظات اجتمع فيها اليك وابوح لك فيها بحديث حي ...

« أما الاشاره بيننا فتكون ظهور رجل تحت نوافذ القصر يعرض ثعلباً مؤنساً على اطفال الجوار . وبعد ذلك بقليل ، عندما تقرع اجراس « السلام المريمي[1] » تسمعين طلقاً من غدارة في البعد .. في هذه اللحظة اقتربي من جدار البستان فاذا لم تكوني وحدك فارفعي صوتك بالغناء فاذا لم تفعلي ظهرت لك ورويت اشياء قد تبعث الرعدة في اوصالك . وبانتظار هذا اليوم المنشود لن اغامر بتقديم اضمامات الورد اليك عند انتصاف الليل غير اني سوف اعبر

---

(١) Ave Maria

بقصرك ، حوالي الساعة الثانية صباحاً فاذا كنت جالسة فوق شرفتك فالقي الي بزهرة قطفتها انامك من حديقتك فقد تكون هذه الزهرة آخر عربون حب تقدمينه لجول المسكين .. »

بعد ثلاثة أيام مضى والد هيلين وأخوها ممتطيين جواديهما قاصدين املاكاً لهما على شاطئ البحر وقد تحرك ركبهما قبل غروب الشمس بقليل بغية العودة حوالي الثانية صباحاً ...

وحدث عندما عزما على العودة أنْ فوجئا باختفاء كل جياد المزرعة بما في ذلك جواداهما ...

كانت دهشتهما عظيمة من جراء هذا السطو الوقح فراح الفلاحون يجدون بحثاً عن المطايا فلم يقيض لهم النجاح الا في صباح اليوم التالي ، اذ وجدوا الجياد في قلب الغابة المشرفة على البحر ولكن بعد ان اضطر السيد دي كامبيريالي وابنه الى العودة في عربة ريفية يجرها ثوران ...

وفي ذات المساء كان جول جاثياً أمام هيلين وقد لفّ العاشقين ليلٌ رطيب شد مابعث ظلامه السعادةَ في نفس الفتاة المسكينة ... انها المرة الاولى التي تجتمع فيها الى هذا الشاب الذي تحمل له وجداً مقيماً وحباً حانياً عطوفاً .. كانت تعرفه حق المعرفة رغم انها لم تكن قد كلمته قبل ذلك قط ..

كان جول اشد من هيلين شحوباً وأكثر ارتجافاً ولكنها شجعته باشارة منها ورنت اليه بحنو وشغف عظيمين وهو الى ركبتيها

وقال :

- الواقع اني عاجز عن الكلام فالسعادة كالشقاء تلجم اللسان وتعطل النطق .

ثمة لحظات في حياة الانسان تحمل دفقاً من السعادة يغمر الافئدة غمراً ويغرقها اغراقاً ..

وتبادل المحبان النظرات وهما في بحران لايستطيعان التفوه ببنت شفة وكأنهما تمثالان معبران من الرخام ..

كان جول جاثياً وقد امسك باحدى راحتي هيلين التي كانت تتأمله بانتباه حانية الرأس ، متلاحقة الانفاس وقد علا وجيب قلبها يكاد يقرع الاسماع ...

كان جول يعرف حق المعرفة انه ينبغي له ان ينتهز فرصة انفراده بهيلين فيغامر ويتجرأ كما نصحه اصدقاؤه من شبان روما المستهترين الا ان فكرة لمس هيلين لمسة سوء كانت كافية لترويعه وبث الذعر في نفسه ! وخرج من سهومه الشديد بهذه الفكرة : الوقت يجري بسرعة شديدة والاب والابن يقتربان من قصرها ... وأدرك انه لن يظفر لنفسه المشككة القلقة بالسعادة المستقرة ان ان لم يبح لحبيبته باعتراف قد يعتبره غيره من الشبان حماقة ما بعدها حماقة .

واخيراً قال لهيلين : لقد حدثتك عن اعتراف قد لايكون لي الحق بالبوح اليك به .

وازداد محيا جول شحوباً ... واضاف بجهد وكأن انفاسه تتقطع :

ـ قد تكون النتيجة حرماني من هذا الحب الذي بنيت عليه آمال حياتي كلها .. انت تحسبينني فقيراً ، ليس هـــذا كل مافي الامر .. انا قاطع طريق وابن قاطع طريق ..

واحست هيلين ، الفتاة المنعمة في الثراء ، الراتعـة في الدلال ، بصدمة قوية خشيت معها من ان تتداعى وتسقط ...

اى شقاء لم يعرفه هذا الفتى المسكين ؟ انه يزعم نفسه حقيراً ، بائساً ..

وعاودها الدوار واعتصر الحزن نفسها ايما اعتصار وكان مازال جاثياً تحت قدميها فاعتمدت عليه لحظة ثم انها تهاوت بين ذراعيه تكاد تفقد الرشد ..

...

وتتابعت اجتماعات العاشقين وتتالت مواعيدهما فيما بعد . وكانت كلها تتم في جو رهيب تحدق بهما الاخطار من كل جانب واعل هذه الاخطار مما حدا بالفتاة الى تناسي ما راودها اول الامر من ندامة ذلك ان الاخطار كثيراً ماتزيد الوجد في قلوب العشاق وتصهرهما في في بوتقة واحدة فتشد رباط الحب بين القلوب الواجفـة والنفوس القلقة ...

وكثيراً ما اوشك الاب والاخ ان يفاجئاهما في خلوتهما غير انهما لم يتمكنا من ذلك قط رغم ان الشائعات كانت قد بلغت آذانهما وكلها تدور حول حب جول وهيلين ...

وانتهى الامر بفابيو المتغطرس ، الابي ، الفخور بمولده ، بان عرض على ابيه قتل جول والتخلص منه نهائياً .

قال : ان حياة اختي ستظل عرضة لاشد الاخطار ما دام جول حياً يرزق ... ومن يستطيع القول ان شرفنا لايحتم علينا غمس ايدينا في دم هذا المتطاول الوقح ؟ ولقد بلغ من قحة اختي وجرأتها انها لم تعمد الى انكار هذا الحب او نفي علاقاتها بهذا الزنيم وقد رأيتها لاتجيب على لومك وتقريعك الا بصمت عابس . . حسناً ، ان هذا الصمت هو القرار القاضي بموت جول برانسيفورت .

واجاب السيد دي كامبيريالي : فكر من هو والد جول ! ليس صعباً علينا ، بالتأكيد ، ان نذهب فنمضي ستة اشهر في روما تكون كافية لازالة هذا البرانسيفورت ولكن مايدرينا ان لم يكن لابيه ، ذلك السفاح الذي ذلل الغنى الكثير من اتباعه بينما ظل هو فقيراً ، ما يدرينا ان لم يكن لهذا الاب اصدقاء مخلصون سواء بين رجال الدوق مونت - ماريانو ، او في عداد اعوان الامير كولونا الذي يقيم عادة في غابة فاكجيولا على بعد نصف مرحلة عنا ؟ .. وفي مثل هذه الحالة فلن ينجينا من الذبح منج .. وانت وانا .. وربما امك التعيسة ..

ان هذه الاحاديث التي كانت تدور كثيراً في الآونة الاخيرة بين الاب والابن قد طرقت اذني فيكتوار كارافا ، ام هيلين ، فأثارت فيها اعظم اليأس ...

وكانت النتيجة من مناقشة الوضع أنْ رأي الرجلان انه ليس من اللائق بشرفها واسم عائلتها ان تدوم هذه الضجة حول علاقة جول بهيلين سيما ان هذا الفتى قد ازداد جرأة وقحة وشرع يظهر في المجتمعات في لباس قشيب ولا يتورع عن توجيه الكلام الى فابيو وحتى الى السيد دي كامبيريالي نفسه ..

وازاء هذه الحالة لم يجدا بداً في انتهاج احد سبيلين ، او السبيلين معاً :

امّا ان ينزحا الى روما نهائياً او ان يعيدا هيلين الى دير كاسترو لتقيم فيه الى ان يعثرا لها على بعل مناسب ..

لم تكن هيلين ، حتى الآن ، قد باحت بسر قلبها المعنى الى امها بالرغم من ان الام والابنة متحابتان حباً عظيماً فهما تقضيان حياتهما متلازمتين لاتفترقان ومع ذلك فلم تدر بينهما كلمة واحدة حول هذا الموضوع الذي لايقل اهتمام الواحدة منهما به عن اهتمام الاخرى .

والمرة الاولى اميط اللثام عن افكارهما عندما اطلعت الام ابنتها على خبر عزمهم على النزوح الى روما وربما عمدوا الى ارسالها لتقضي عدة سنوات في دير كاسترو .

لقد اخطأت السيدة فيكتوار في اثارة هذا الموضوع الشائك

واذا ماتحرينا لها عن عذر فاننا واجدوه في حنوها العظيم ، وحبها المفرط لابنتها حباً وحنواً بلغا درجة التدله والجنون ..

امّا هيلين العاشقة المتيمة ، فقد حزمت امرها على الثبات في وجه التيارات العنيفة التي توشك ان تجرفها والعواصف العاتية التي تكاد تعصف بها . انها واثقة بحبيبها ، فخورة به ، غير خجلى من فقره ، اكيدة من شرفه ونبله ..

من تراها تحسبه ؟ لقد لمست فيه الجرأة المتناهية ، والاستعداد الاكيد للتضحية بعد الذي رأته من اقدامه على ضرب المواعيد لها في حديقة القصر ، تلك المواعيد التي كانا فيها قاب قوسين او ادنى من ميتة شنيعة مريعة ... بل قل ان جرأته بلغت به حداً جنونياً دفعه الى موافاتها ، مرة او مرتين ، في مخدعها بالذات ...

هيلين كانت نقية نقاء زنابق الحقل ، طاهرة طارة ندى الصباح كانت قويه بفضيلتها ، واثقة من نفسها ولذا لم تر حرجاً في خروجها مع حبيبها من القصر وكان الليل قد انتصف ، ليذهبان فيمضيان بقية ليلتها في بيته الصغير القائم فوق انقاض أاب ، بعيدين عن عيون العذال ، في منجاة من الاخطار الداهمة .

وتنكر العاشقان في زي راهبين من رهبان القديس فرانسوا . وكانت هيلين مشيقة القوام ، مياسة العود ، فبدت في تنكرها كأنها احد (الاخوة المبتدئين) البالغين من العمر الثامنة عشرة او العشرين .

واثناء الطريق تم أمر عجيب ! أمر جاء دليلاً ساطعاً على تدخل العناية الالهية في شأن هذين الشابين العاشقين .. فقد حدث ان التقيا ، وهما يسيران في الطريق الضيقة المحاذية لاسوار دير الكبوشيين ، بالسيد دي كامبيريالي وابنه فابيو وهما في طريق عودتهما يتبعهما عديد من الخدم المدججين بالسلاح ويتقدمهما خادم بمشعل منار ..

وتنكب السيدان الطريق ليفسحا المجال امام العاشقين المتنكرين اذ وقفا ، مع خدمهما ، على عين الطريق الضيقة ويسارها ...

« ألا ليت امر هلين قد اكتشف في هذه المغامرة ! ولو تم ذلك إذاً لقتلت دون ريب برصاص مسدس ابيها او اخيها ولما دام عذابها اكثر من لحظات معدودات ولكن والسماء شاءت لها غير هذا المصير ... مصيراً أشد وأدهى ...[1] »

وفي هذا اللقاء الغريب تمت مفاجأة اخرى :

« كان فابيو دي كامبيريالي شاباً شديد الاعتزاز بشجاعته ، ذا خيلاء وتعال ، وقد لفت نظره ، عندما التقوا بالراهبين ، ان اكبرهما سناً لم يعن بالسلام على ابيه او عليه وهو يمر بهما ، فصرخ فيه فابيو :

ـ يالهذا الكاهن الصعلوك من معتدٍّ متكبر ! الله يعلم ماذا

---

(١) هذه الفقرة منقولة عن مخطوطة فلورنسية قديمة لمؤرخ مجهول روى قصة هيلين راهبة كاسترو . المترجم

يقصد من خروجه ليلاً مع رفيقه هـــذا .. لست ادري ما الذي يدفعني الى رفع قلنسوتيهما كي ارى سحنتيهما .

مافاه فابيو بهذه الاقوال حتى اطبق جول بكفه على مقبض خنجر كان يخفيه تحت ردائه الكهنوتي ووقف بين هيلين وفابيو متحفزاً .. ولكن العناية الالهية شاءت ان تمر العاصفة بسلام فقد خمدت غضبة الشابين باعجوبة ومضى كل منهما في سبيله دون ان يقدم احد منهما على استفزاز الآخر[1] » .

---

(١) هذه الحادثة روتها السيدة فيكتوار كارافا دي كامبريالي ، والدة هيلين ، الى جلسائها الشيوخ والعجائز وكانت قد بلغت من العمر عتياً ومرت بكل الحوادث الدامية التي سوف نرويها في هذا الكتاب .
المترجم

٢

كان آل اورسيني ، اعـــداء آل كولونا الألداء الخالدون ، يسيطرون ، في ذلك العهد ، على اكثر القرى المتاخمة لروما ..

وحدث أن استطاع آل اورسيني حمل محاكم الدولة على اصدار حكم بالموت على مزارع غني يدعى بالتازار بانديني من سكان بيتريللا لجرائم نسبوها اليه لايتسع المجال لذكرها وان تكن قد ضخمت وصورت شنعاء مريعة ..

واعتقل بانديني وسجن في قلعة لآل اورسيني واقعة في الجبل القريب من فالمونتون ، على ست مراحل من البانو .

وفي اليوم المحدد لتنفيذ الحكم وصلت حامية كثير عديدها الى هذه القلعة لتقتاد بالتازار الى روم حيث يتم اعدامه .

وكان المحكوم ، كما ذكرنا ، من بيتريللا ، وهي قلعة لآل كولونا ، ومن اتباع اميرها ..

وفي اليوم المحدد لاقتياده الى روما جاءت زوجته وقابلت فابريس كولونا وخاطبته على رؤوس الاشهاد قائلة :

ـ كيف تدع أحد خدامك الاوفياء يموت ، امام سمعك وبصرك مظلوماً ، بايدي اعدائك ؟

فاجاب الامير بلباقته المعهودة :

- ولكن الله لايرضيه ان اتخلى عن الاحترام المتوجب علي نحو حكم تصدره محاكم مولاي قداسة البابا ...

مافرغ الامير كولونا من قولته هذه حتى اصدر أمراً عاجلا الى جنوده واعوانه يستنفرهم فيه ويدعوهم الى التأهب والاستعداد . وعين موعداً للقاء في ضواحي فالمونتون المدينة الصغيرة المبنية فوق صخرة قليلة الارتفاع ولكنها محصنة بهاوية تكاد تكون عمودية تدور بها من جميع جهاتها ويتراوح عمقها بين ستين وثمانين قدماً . وقد نجح رجال البابا وأعوان آل اورسيني باعتقال بانديني في هذه المدينة ..

كان السيد دي كامبيريالي وولده فابيو من انصار البابا المخلصين فضلا عن انهما يمتان بصلة قرابة بعيدة لآل اورسيني اما جول برانسيفورت فقد ورث عن ابيه اخلاصه لآل كولونا .

كثيراً ما كان آل كولونا يلجئون ، عندما لاينبغي لهم التظاهر بمناهضة السلطات علناً ، الى حيلة بسيطة جداً : ففي ذلك العهد كانت تعيش طبقة من الفلاحين الرومانيين يعرفون « بالتائبين » ومن تقاليد هذه الجماعة الا يكشف افرادها عن وجوههم مطلقاً فهم ابداً مقنعون بقناع سابغ مثقوب امام العينين ثقبين ضيقين فاذا ماراد آل كولونا عقد اجتماع دعوا انصارهم الى المكان المعين متنكرين بازياء « التائبين »

وبعد استعداد طويل حدد يوم الاحد موعداً لاقتياد بانديني الى روما فكان هذا الخبر شغل البلاد الشاغل فترة طويلة من الوقت .

وفي تمام الساعة الثانيـــة صباحاً من اليوم المحدد امر حاكم فالمونتون بقرع الاجراس في قرى غابة فاكجيولا جميعاً . وشرع الفلاحون يخرجون من قراهم زرافات زرافات .. وفلاحو هذه النواحي مازالوا يحتفظون بروح الشجاعة والاقدام التي ورثوها عن العهود الجمهورية الغابرة .

ان المرء ليلاحظ ، ذلك اليوم ، امراً فريداً : فكلما تقدمت جماعات الفلاحين في جنبات الغابة كلما تناقص عدد افرادها وتقلص.

وتفسير هذه الظاهرة بسيط : فانصار آل كولونا كانوا يتسللون من بين الجموع ويتخـذون طريقهم الى المـكان المعين للاجتماع وهم بـكامل سلاحهم .

وتلقى زعماء تلك الجماعات امراً من فابريس كولونا باشاعـــة الخبر القائل لهم لن يتصدوا للقتال ذلك اليوم .. وكان هـــذا التدبير جزءاً من خطة مرسومة ..

شرع فابريس كولونا يطوف ارجاء الغابة بصحبة نخبـة من انصاره وقد امتطى الجميع جياداً فتية نصف متوحشة . ومر الزعيم في شبه استعراض ، بجماعات الفلاحين دون أن يوجه اليهم كلمـة واحدة تنم عما يتوقعه من أخطار محدقة ذلك اليوم ..

كان فابريس رجلاً فارع القامة ، عصبي المزاج ، رقيق الجسد

ذا نشاط وقوة خارقين . وبالرغم من انه لم يتجاوز الخامسة والاربعين فقد كان شعر رأسه وشارباه على بياض ناصع كالثلج .

وتعالت هتافات الفلاحين كلما وقعت أعينهم على الامير : ايحي كولونا !

ثم انهم وضعوا القلنسوات القماشية التي تخفي ملامحهم وقد رأوا قلنسوة شبيهة معلقة على صدر الامير يضعها عندما يرى العدو دانياً ...

ولم يطل الامر حتى رأت تلك الجموع آلافاً من الرجال من أشياع آل اورسيني يتوغلون قدماً في الغابة عند مطلع الشمس .

كانوا قادمين من فالمونتون مارين على ثلاثمائة خطوة عن مكان اتباع آل كولونا وكان هؤلاء قد انكفؤا على وجوههم مختفين بناء على امر الزعيم كولونا .

ما ان إبتعد رجال اورسيني حتى نهض كولونا وامر رجاله بالاستعداد فقد قرر مهاجمة حراس بانديني بعد ربع ساعة من توغلهم في الغابة .

كان هذا المكان من الغابة مليئاً بصخور صغيرة يتراوح ارتفاعها بين خمسة عشر وعشرين قدماً وكل هذه الصخور من حمم خامدة قديمة العهد لفظتها البراكين الكثيرة المنتشرة في هاتيك الربوع .

واختار كولونا للهجوم مكاناً من الغابة قلت اشجاره وغمره النور وكست الاعشاب جنبات ارضه واتصل ، من إحدى جهاته

بالطريق الكبيرة التي تتوغل في الغابة وكان المكان غنياً بالادغال والشجيرات والاشواك والعواسج التي كانت تجعله وعر المسالـــك صعب الارتياد .

وتقدم فابريس برجاله مائة خطوة داخل الغـابة حيث بثهم على جانبي الطريق . واعطيت الاشارة فتقنع كل فلاح بقلنسوته السابغة وكمن وراء شجرة او دغل او صخرة واعد غدارته واخذ وضعيـة الرامي . وكان جنود الامير النظاميون قـــد استقروا وراء اقرب الشجيرات من الطريق . وكان الفلاحون قـد تلقوا أوامر مشددة بعدم أطلاق النار قبل ان يفعل الجنود ذلك وهؤلاء لاينبغي لهم فتح النار الا" حين يصبح العدو على عشرين خطوة منهم .

وتبع القائد رانوس مقدمة العدو مـــع خمسماية من رجاله وقام بحركة التفاف واسعة حولهم وكان قد تلقى الامر بعدم مهاجمتهم الا" بعد سماعه اولى طلقات الغدارات ..

ما أن رأي الامير كولونا جنوده واتباعه قـــد استقروا في أماكنهم واطمئن الى حسن تنظيمهم حتى انطلق يحيط به نخبة من قواده بينهم جول برانسيفورت ، في طريق ضيقة تمتد إلى عـــين الطريق الكبري وتؤدي إلى ابعد مفازة من مفازات الغابة .

ما كاد الامير يبتعد حتى ظهرت ، ناحية فالمونتون ، جماعة كبيرة من الفرسان : انهم فرسان الحرس المرافقين لبانديني ... وقـد بدا هذا المنكود في وسطهم يحيط به اربعة جـــلادين مجلببين بالاردية

الحمراء وكانوا قد تلقوا اوامر صارمة بقتل اسيرهم إذا ماتصدى لهم انصار كولونا يحاولون انقاذه .

ما ان بلغت خيول كولونا طرف المفـــازة حتى طرقت آذانهم اصوات عيارات نارية من غدارات حامية الخط الاول ..

وسرعان ما اطلق الفرسان الاعنة للجياد يتقدمهم الامير وقـد توجه رأساً إلى الجلادين الاربعة حمر الاردية المحدقين ببايدبني .

كانت المباغتة شديدة الوقـع على انصـار اورسيني فولوا الادبار للصدمة الاولى وتفرقوا في كل اتجاه إلا ان اوائل مقاومتهم ادت إلى قتل القائد الشجاع رانوس الذي شن على المقدمة هجوماً عاصفاً وكان مصرعه ضربة قاسية بالنسبة للامير الذي فقـد اشجع قواده وبالنسبة لبرانسيفورت الذي خسر اخلص صديق اورثه اياه ابوه .

امّا جول فقد حمل حملة صادقة إلى جانب الامير كولونا وراح يهوي بسيفه ذات اليمين وذات الشمال شاقاً طريقـه نحو الجلادين ولكنه لم يتقدم كثيراً حتى وجد نفسه امام فابيو دي كامبيريالي وجهاً لوجه ...

كان فابيو يمتطي جواداً مطهماً ويرتدي قميصاً من زرد مذهب وما وقعت عيناه على جول حتى صرخ :

– من هم هؤلاء البؤساء المقنعون ؟ هلاّ رفعنا بحـد السيوف اقنعتهم المشؤومة ؟

وسدد الى جول ضربة سيف افقية ، حسنة التسديد ، اسقطت القناع

فوراً واحس جول على اثرها بالدماء تعمي باصرتيه وقد سالت من جرحه غزيرة دافقة رغم ان الجرح لم يكن عميقاً ولا بالغاً .

وتقهقر جول بجواده كسباً للوقت كي يتاح له التنفس ومسح الدماء عن وجهه . لقد حاول ، باي ثمن ، عدم الاصطدام باخي هيلين ...

وكان على أربع خطوات عن فابيو عندما وجه اليه هذا الاخير ضربة سيف غضبى اصابت صدره ولكن الزرد صدها فلم تنفذ إلى جسم جول ولكن ذلك لم يمنعها من ان تقطع انفاس الشاب لحظة .

وعلا صوت فابيو مجلجلاً :

ـ لقد عرفتك ايها الصعلوك الحقير ! أهذه هي وسيلتك الى كسب مال تبدل به هلاهيلك ؟

ونفذت الاهانة في صدر جول حيث لم تنفذ ضربة الحسام فنسي قراره السابق ولوى عنانه نحو فابيو وهتف به :

ـ الويل لك ! لقد دنت ساعتك وازفت منيتك !

وبعد عدة ضربات متلاحقة بالسيوف تبادلها الفارسان تناثرت الثياب التي كانت تغطي درع فابيو ، تلك الدرع البديعة المذهبة ، كما عريت درع جول العادية البسيطة .

وصرخ فابيو : من أية قمامة التقطت درعك ايها النذل ؟

وفي نفس اللحظة وجد جول السانحة التي ترقبها : لم يكن الزرد الرائع الذي يرتديه فابيو محكماً على عنقه احكاماً تاماً ...

وحمل جول على خصمه حملة صادقة وسدد طعنة نجلاء إلى عنقه المكشوفة فنفذ نصله فيها الى نصف قدم فانبجس دم غزير هائل كأنه نافورة الماء المضغوط !..

وصرخ جول : خذها ايها اللئيم !

وترك فابيو يسقط مضرجاً بدمه ولوي عنان جواده وانطلق نحو الرجال حمر الاردية وكان اثنان منهما مازالا صامدين فوق جواديهما.

وبضربة سقط احدهما ارضاً بالقرب من رفيقيه .. ووجد الجلاد الوحيد الباقي على قيد الحياة نفسه في موقف حرج وقد أحدق به عشرة فرسان سدوا عليه سبل النجاة فشهر مسدسه واطلق النار فسقط بالتازار باندليني المسكين ...

وصرخ جول برانسيفورت : ايها السادة الاعزاء انتهى الامر ولم يعد لنا مانفعله في هذا المكان .. فلنعمل السيف في رقاب هؤلاء الحراس الجبناء الذين تفرقوا مذعورين في كل اتجاه ...

وانطلق وانطلق اثره كل الرجال ..

وعندما عاد جول ، بعد انقضاء نصف ساعة ، الى قرب الامير فابريس كولونا وجه اليه هذا الاخير الكلام لاول مرة في حياته.

كان الامير مستشاطاً غضباً في حين حسبه جول مستطاراً فرحاً نشوان بخمرة النصر الساحق الذي اصابه سيما وان آل اورسيني كانوا قد جمعوا اكثر من ثلاثة آلاف رجل بينما لم يزد عدد رجال كولونا عن نصف هذا العدد .

وصرخ الامير مخاطباً جول :

ـ لقد فقدنا صديقنا الشجاع رانوس وقد تأكدت بنفسي من خمود الحياة في جسده .. وبالتازار بانديني المسكين اصيب بجرح مميت .. وهكذا ترى اننا ، في الواقع ، لم نكسب المعركة .. لقد اصدرت اوامري بشنق كل هؤلاء الاسرى الادنياء على اغصان الشجر ..

ورفع صوته ونادى : حذار من ترك احدهم ينجو ايها السادة !

وانطلق بجواده يعدو صوب المكان الذي دارت فيه معركة الحامية الامامية .

كان جول قد غدا قائد الفرقة التي كان يقودها رانوس .

وسار في اثر الامير إلى أن بلغا جثة الفارس المقدام وكانت ممددة فوق الارض وقد احدقت بها اكثر من خمسين جثة عدوة . وترجل الامير فحذا جول حذوه ودنا من الفارس القتيل وتناول راحته الباردة ، ثم انه اجهش بالبكاء ...

وقال الامير مخاطباً جول : انك فتى حديث السن ولكني أراك مجلبباً بالدماء .. ولا غرو .. فابوك كان قائداً باسلا لم توفر الجراح ناحية من جسده .. وقد ابلى أحسن البلاء في خدمة آل كولونا كن آمراً لما تبقى من فرقة رانوس . بادر بنقل جثته الى كنيستنا في بيتريللا : فكر في انك قد تتعرض ، اثناء الطريق ، لهجوم مباغت ..

لم يتعرض جون لأي هجوم كما توقع الامير الا انه اضطر لقتل احد جنوده بضربة من سيفه عندما قال له هذا الجندي انه صغير السن لايصلح للقيادة ...

وكان لهذه البادرة وقع رائع في نفوس جنوده فقد بث الذعر في قلوبهم جميعاً خاصة انه كان مايزال مجللاً بدماء فابيو ..

وغزت كآبه قاتلة قلب القائد الشاب كان مبعثها تفكيره في مصرع صديقه رانوس ومنظر تلك الجثث التي لاتفتأ عيناه تقع عليها متدلية من اغصان الشجر .. زد على ذلك ان مقتل فابيو لم يكن ليفارق تفكير جول ..

في زحمة هذه الافكار القاتمة شعر جول انه يكاد ان يصاب بمس من جنون ..

. . .

مضت ايام ثلاثة على هذه الاحداث المروعة . ووجد جول نفسه اخيراً يتخذ وجهته الى ألبانو بعد ان زعم لصحبه ان حمى خبيثة قد دهمته وهو مضطر الى التغيب ، في روما . اسبوعاً للراحة والاستجمام علّه يبلّ من هذا المرض الذي ألمّ به .

وفي ألبانو تغيرت نظرة الاهلين اليه وصاروا يعاملونه باحترام ظاهر ويسارع وجهاء المدينة الى تحيته وقد بلغ الامر ببعض الاغبياء ان راحوا ينادونه : ياسعادة القائد !

ومرّ جول بقصر دي كامبيريالي مثنى وثلاث ورباع فوجده أبداً موصد الابواب والنوافذ . ولمّا كان هذا القائد الشاب شديد الخجل لم يتوصل الى استقصاء سبب لهذه الظاهرة الاّ عند انتصاف النهار ، وقد اطلعه على السر الشيخ سكوتي الذي كان يعامله دائماً بطيبة خالصة وحنان أكيد .

وسأله جول : ولكن أين هم آل دي كامبيريالي ؟ أرى قصرهم قد خلا من كل صافر نار ...

وجاءه جواب سكوتي الشيخ مشبعاً بكآبة لم يكن ليتوقعها :

ـ لاينبغي لك ، ياصاح ، ان تلفظ هـــذا الاسم بعد الآن اطلاقاً .. كل اصدقائك مقتنعون بانه هو الذي كان يسعى اليك ويجد في طلبك وهذا ما يقولونه في كل مكان .. ولكن هذا لايمنع ان يكون العثرة الكبرى في سبيل حبك لأخته وزواجك منهـــا .. ناهيك عمّا يؤدي موته اليه من أشياء لك فيهـا اعظم المصلحة .. فبموته يترك اخته التي تحبك وقد تضاعف ثراؤها .. زد على ذلك ان الالسنة تلمع الى ماهو أكثر وأخطر من ذلك .. لقد اصبحت الطلعة فضيلة في هذه الايام ... يقولون ان هيلين الجميلة متعلقة بك لدرجة جعلتها لاترى حرجاً في اصطحابك ليلاً الى بيتك الصغير في ألب حيث قضت ليلتها بين ذراعيك وغدت زوجة لك .. وكان ذلك قبل معركة كيامبي المشؤومة ...

وامسك الشيخ عندما وجد جول يستخرط في بكاء مرير ...

وقال القائد الشاب : هيّا بنا إلى الفندق .

وتبعه سكوتي الى حجرة كان احتجزها جول . واغلقـــا الباب بالرتاج وسأل جول الشيخ ان يصغي اليه ليحدثه بكل ماتمّ معه خلال الايام الثمانيه الاخيرة .

وقال الشيخ بعد ان فرغ الفتى من حديثه :

ـ لقد اثبتت لي دموعك السخينة انك لم تقدم على فعلتك عن عمد وتصميم مسبقين . ولكن هـذا لايمنع ان يكون موت فابيو ضربة قاسيـــة تنزل بك . ينبغي ، دون أي تردد ، ان تصارح هيلين أمّها انها سبق واصبحت زوجة لك منذ امد طويل .

ولم يحر جول جواباً . ففسر الشيخ هذا الصمت انه تستر يمليه النبل وعلو الهمة ..

واستغرق الفتى حلم بعيد القرار وكان يسأل نفسه عما اذا كانت هيلين سوف تقدر موقفه حق قدره فتلتمس له عذراً بعد ان فجعها بأخ عزيز . وادركته الندامة على مابدر منه .

واضاف الشيخ : لقد قتل فابيو في الساعة السادسـة والنصف صباحاً على أكثر من ست مراحل عن ألبانو . الغريب في الامر ان الناس ، بعد ساعات قلائل ، راحوا يتحدثون عن مصرع الفتي في المدينة .. ياللشيء الذى ليس يصدق ! .

وحوالي الظهيرة شاهد القوم دي كامبيريالي الشيخ سابحاً فيدموعه وقد سار به خادمان يسندانه ، إلى دير الكبوشيين .. وبعـد قليل

شوهد ثلاثة من الرهبان يعتطون اكرم جياد آل دي كامبيريالي وقد توجهوا ، متبوعين بعديد من الخدم ، الى قرية كيامبي التي نشبت المعركة المشؤومة في تخومها ..

وشاء دي كامبيريالي ان يسير في الركب والح في ذلك الحاحاً شديداً فلم يتوصلوا الى اقناعه بالعدول الا حين زعموا له ان فابريس كولونا شديد الغضب لسبب مجهول وهو جدير بان يلحق به افدح الأذية إنْ هو سقط اسيراً في أيدي رجاله ..

وحوالي منتصف الليل ، بدت غابة فاكجيولا كأنها شعلة من نار .. فقد مضى جميع الرهبان يواكبهم عدد غفير من فقراء ألبانو ، الى لقاء جثمان فابيو الشاب الفقيد !

وخفض الشيخ صوته وتابع : لن اخفي عليك مارواه الكثيرون .. انت تعلم ان الطريق المؤدية من فالمونتون الى كيامبي ..

واشتد خفوت صوت الشيخ كأنه يخشى اذناً تسترق السمع فصاح به جول يستحثه : ماذا ؟

ـ حسناً . هذه الطريق تمر امام بيتك .. وقد رُوي ان الدم قد تدفق غزيراً من جثمان فابيو عندما بلغوا به هذا المكان ..

وشحب وجه جول شحوباً مريعاً ونهض وهو يقول : ياللهول !

واسرع الشيخ يقول : هديء روعك يا صاح . ترى جيداً انه ينبغي لك ان تعرف كل شيء ... والآن .. اعلم ان ظهورك في المدينة جاء قبل اوانه .. واذا كنت ، ايها القائد ، تشرفني بالاصغاء

الى نصحي ، قلت لك انه لاينبغي لك الظهور في ألبانو قبل مرور شهر على اقل تقدير .. كما اني لا اري ضرورة لتذكيرك بالابتعاد عن روما مدة مماثلة . ليس من يعرف ، حتى الآن ، الموقف الذي سوف يتخذه الاب الاقدس(١) حيال آل كولونا . واغلب الظن ان حاكم روما ، وهو من آل اورسيني ، سوف يُسرّ غاية السرور اذا ما اتيح له تعليق احـد قواد فابريس الشجعان فوق الاعواد تشفياً وانتقاماً ... خاصة وان الامير كولونا قد تنصل من مسؤولية المعركة ، واعلن انه لم يسمع بها الا بعد وقوعهـا ومن افواه الناس ..

وصمت الشيخ قليلاً ثم استطرد :

ـ بالرغم من انك لم تسألني نصيحة فانا اسمـح لنفسي بالتطفل فاقول : انت محبوب في ألبانو ولولا هذا الحب لما بتّ في مأمن . فكر في انك تطوف في ارجاء المدينة لساعات خلت ولم يكن من الصعب على أحـد انصار آل اورسيني ان ينتهز الفرصـة فيغمد في ظهرك خنجراً قاتلاً امّا رغبة في الانتقام او ، على الاقل ، طمعاً في جائزة سخية يؤمل الحصول عليهـا .. بعد ان ردد السيـد دي كامبيريالي الف مرة انـه يهب اجود املاكه لمن يوفق الى

(١) اللقب الوسمي للبابا .

المترجم

قتلك . كان يجمل بك ألا تحضر الى ألبانو إلا بصحبة حراس من جنودك الاشداء .. الموجودين في منزلك الآن ..

ـ ليس لدي اي جندي في منزلي .

ـ في هذه الحالة ... انت مجنون ايها القائد .. ان لهذا الفندق حديقة .. هيا نخرج منها ثم ننطلق عبر الكروم .. سوف ارافقك.. انا شيخ هم لا احمل سلاحاً ولا اقوى على نزال ولكني استطيع ان أكسب لك بعض الوقت ان نحن التقينا ببعض متعمدي الشر .

واحس جول بانقبـــاض شديد يعتصر صدره .. اي جنون يتهمونه به ؟ ..

امّا وقـد علم ان قصر دي كامبيريالي خال خاو وان كل سكانه قد غادروه الى روما فقد صمم على الذهاب لرؤية الحديقة التي طالما التقى فيها بمعبودته .. ودغدغه الامل برؤية حجرتهـا حيث كانت تستقبله مفتوحة الذراعين واجفة القلب حباً ..

كان بحاجة الى تهدئة نفسه الثائرة ، واخماد وجـده الطاغي ، برؤية الامكنه التي حمل لها ذكريات ما اعزها وما احلاها ...

• • •

لم يلتق جول والشيخ الكريم بأحد اثناء تسللهما بين الكروم.. وسارا باتجاه البحيرة ...

وسأل جول مرافقه ان يعيد على مسمعيه قصة نقل جثمان فابيو

فعلم ان هذا الجثمان قد حمل الى روما وغيب في مقبرة عائلته في دير القديس اونوفر ، على قمة رابية جانيكول .

كما علم ان السيد دي كامبيريالي قد امر بهيلين ، غداة المأتم ، فحملت الى دير كاسترو لتقيم بين جدرانه امداً غير محدود ... وقد أكد هذا التصرف الغريب الاشاعات القائلة ان الفتاة كانت قد تزوجت سراً من القائد المغامر الذي صرع اخاها ...

وعندما بلغ جول منزله وجد عريف فرقته مع اربعة من جنوده وقد اقلقهم غيابه . ولما طمأنهم قالوا له ان قائدهم السابق ما كان يغامر بالخروج من الغابة قط دون حراسة مشددة من بعض رجاله . وكان يفعل ذلك استجابة لرغبة الامير الذي كان لاينفك يردد : اذا ماشاء المرء ان يعرض نفسه للتهلكة بسبب قلة احتراسه وحذره ، فعليه قبل ذلك ان يقدم استقالته ويطلب اعفاءه من عمله كي لايترك لنا دماً يجب الانتقام له !

وادرك جول برانسيفورت صواب هذه الفكرة التي لم تخطر له على بال .. فهو يحمل عن الحرب فكرة اشبه بفكرة الشعوب البدائية عنها : ما الحرب الا القتال بشجاعة !

وصدع فوراً بتوجيهات الامير فلم يتأخر الا فترة قصيرة أمَّن فيها عودة الشيخ الكريم الذي تجشم مشقة مرافقته حتى منزله .

لم تمض ثلاثة ايام حتى كان الوجد يعاود العاشق الشاب شديداً ملحاحاً فيحس دافعاً لا يقاوم يحدو به إلى رؤية منزل

الحبيبة النازحة ..

وما ارخى الليل اسداله حتى مشى جول الى ألبانو يصحبه ثلاثة من جنوده الاشداء وقد تنكروا جميعاً في زي تجار نابوليين .

ومضى بمفرده إلى منزل الشيخ سكوتي ومنه علم ان هيلين ماتزال مبعدة في دير كاسترو وكان ابوها قد اقسم ايماناً مغلظة على الا تقع عيناه عليها ماتردد فيه نفس من حياة .. يقيناً منه انها قد اضحت زوجة للمجرم الاثيم الذي صرع اخاها ..

امّا عواطف امها نحوها فكانت ، على العكس ، قد تضاعفت وازدادت اضطراماً . وكثيراً ما كانت السيدة فيكتوار تقصد مدينة كاسترو لتقضي يوماً أو يومين مع ابنتها الحبيسة بين اسوار ذلك الدير الجهم السحيق ..

٣

غاد جول إلى مقر فرقته في الغابة وهو يحدث نفسه قائلا :

ـ اذا لم يتح لي تبرير نفسي أمام هيلين فسوف ينتهي بها الامر إلى اعتباري قاتلاً سفاحاً .. الله يعلم ماالذي سيحشون به رأسها من أخبار ملفقة عن هذه المعركة المشؤومة ! ..

ومضى إلى فابريس كولونا يتلقى أوامره من قلعتـه في بيتريللا وقد حزم أمره على استئذانه في الذهاب إلى كاسترو ..

وقطب الأمير حاجبيه وقال :

ـ إن قضيـة المعركة الصغيرة لم تسوَّ بعد مع قداسة البابا . يجب أن تعلم أن الحقيقة ما أعلنت عندما زعمت اني كنت بعيداً عن هـذا القتال حتى اني لم أسمع بخبره الاَّ في اليوم التالي وأنا هنا في قصري ببيتريللا . ان يقيني لمكين بان صاحب القداسـة سوف يصدق مزاعمي ويقتنع بمنطقي . ولكن آل اورسيني دهاة مقتدرون وقد عرف كل الناس أنك كنت ، في هـذه المعركة ، قطب الرحى .. لقد ادعى آل اورسيني أن عديداً من الاسرى قد علقوا على أغصان الاشجار .. أنت تعرف كم هي عارية عن الصحـة مثل هذه الاخبار ! ..

وسرَّ الأمير ما رأى من دهشة عميقة بريئة ارتسمت على محيا القائد الشاب الساذج ، فرأى ، حيال هذه البراءة ، ان يكون أشد وضوحاً واكثر صراحة .. فتابع :

ـ يخيل إليَّ اني ألمح في صدرك قبساً من هذه الشجاعة الكاملة التي اذاعت ، في كل يطاليا ، اسم برانسيفورت . وأنا وطيد الأمل بأن تحمل لعائلتي ذلك الاخلاص الشديد الذي تحلى به ابوك فبوّءه مكاناً مرموقاً ومنزلة عزيزة في قلوبنا جميعاً حتى أني أود لو أكافئه بتقديمك واكرامك ورفع قدرك .

وصمت الأمير لحظة ثم تابع وقد غير من نبرة صوته فغدت آمرة صارمة بعد أن كانت رقيقة حانية :

إليك أوامري : لاتفه بكلمة واحدة عن حقيقة الدور الذي لعبته أنا أو قام به جنودي النظاميون . فاذا فرضنا أنك حملت على الكلام قسراً فاستعن بالكذب وضع نصب عينيك أن قولك الحقيقة جريمة وخطيئة مميتة ! إعلم أنهم إن هم اطلعوا على الواقع استطاعوا النفاذ منه إلى كل مشاريعي المستقبلة .. أنا لا أجهل أن الك حبيبة صغيرة سجنت في دير كاسترو .. لك أن تذهب فتمضي اسبوعين في تلك المدينة الصغيرة حيث لايعدم آل اورسيني اصدقاء بل عملاء وعيوناً ... عرّج على خازن اموالي فيعطيك مائتي قطعة ذهبية تستعين بها على نفقاتك .

وتابع الامير ضاحكاً : ان الصداقة التي حملتها لابيك تحدو بي

إلى ازجاء بعض النصائح اليك وتقديم بعض التوجيهات التي قـــد تفيدك في مغامراتك الغرامية والحربية : تنكر مع ثلاثة من جنودك الاشداء في زي تجار ولا تنسَ أن تغضب على احد اتباعك الذي يتظاهر بالسكر الشديد وادمان الخمرة مستعيناً بذلك على توطيـــد أواصر صداقات عـــديدة مع المتسكعين من اهل المدينة بان يغدق عليهم كؤوس الخمرة ..

ولاذ الأمير بالصمت لحظة ثم عاد يقول بلهجة اخرى :

- واذا فرضنا ان ألقى عليك آل اورسيني القبض وهموا بقتلك فلا تبح قط باسمك الحقيقي او بصفتك الرسميـــة كقائد من قواد جيش الأمير كولونا . فانا لست بحاجة إلى تصديع رأسي بالبحث عنك واثارة الدنيا طلباً لدمك ..

لامست هذه النصائح الابوية الصادرة عن رجل اعتاد الجهومة والعبوس وتراً حساساً من نفس جول .

وابتسم الامير ، أول أمره ، الدموع التي رآها تتحير في عيني الشاب ثم أخذ صوته بالتهدج قليلا قليلا لشدة تأثره ..

وهمَّ الأمير باحد الخواتم الكثيرة التي تزين اصابعه فانتزعـــه وناوله لجول فانحنى الفتى بالغ التأثر ولثم اليد الكريمـــة التي طالما أتت بروائع الافعال ..

وهتف الشاب متحمساً : إني لم اسمع مثل هذه النصائح الغالية من ابي ...

لم يكن الفجر قد بزغ بعد عندما بلغ اسوار مدينة كاسترو الصغيرة القائد الشاب جول برانسيفورت متنكراً بزي التجار يرافقه خمسة من جنوده في مثل زيه وقد سار اثنان منهما بعيداً عن الجماعة وقد تظاهرا بعدم معرفتهم .

ووقعت انظار جول ، قبل بلوغه المدينة ، على ديرها الشهير ، ذلك المبنى الفسيح الشامخ المحاط بجدران سود قاتمة ، وهو في مناعته وشموخه ، أشبه بالقلاع والحصون .

ودخل جول واتباعه المدينة . وسارع يقصد كنيستها الرائعة الملحقة بديرها الشهير .

ان راهبات دير كاسترو ينتمين جميعاً الى أغنى وأعرق الاسر الايطالية وكن يتبارين في تزيين الكنيسة ويتنافسن في تقديم اثمن الهدايا اليها . والكنيسة هي القسم الوحيد من ذلك الدير ، المباح لجماهير الشعب ولكل عابر سبيل .

كانت العادة المتبعة في اختيار رئيسة الدير ان تتقدم ثلاث من راهباته الى الكردينال المسؤول عن إدارة الدير فيقدم اسماءهن الى البابا الذي يختار احداهن لهذا المنصب السامي وما ان تتم تسمية الرئيسة حتى تبادر إلى تقديم هدية ثمينة للكنيسة تخلد اسمها وترفع مقامها فاذا كانت الهدية أبخس من سابقتها لقيت صاحبتها كل احتقار والحقت باسم عائلتها المهانة والصغار .

مشى جول متنقلاً في هذه الكنيسة التي تعتبر بحق تحفة معمارية

خلابة بما ضمت من تماثيل رخامية بديعة ونقوش ذهبية رائعة ...
ووقف الفتى مشدوهاً امام المذبح الفخم الذي كاف ، كما قيل له ،
اكثر من ثمانمائة الف قطعة ذهبية .. الا" ان انظار الفتى لم تطمئن
إلى كل هذا الثراء العريض والبذخ المفرط بـل اتجهت نحو حاجز
مشبك بالحديد يناهز ارتفاعه اربعين قدماً قسمته عوارض رخاميـة
الى ثلاثة أقسام . كان هذا الحاجز قائماً وراء المـــذبح مباشرة
والغرض منه حجب جوقة الراهبات التي تقوم بالتراتيل عن اعـين
جماهير المصلين .. لقد خيل لجول انه يرى عيني هيلـين الجميلتـين
تحدقان به من ورائه ...

وقال الفتى الولهان في نفسه : وراء هذا الحاجز تقف الراهبات
والفتيات من نزيلات الدير .. وإلى هذا المكان تستطيع اية راهبة
او فتاة الحضور للصلاة في أية ساعة من ساعات النهار ..

وعلى هذه الفكرة عقد كل آماله هذا العاشق المدلـَّه ...

صحيح أن ثمة ستاراً صفيقاً يحجب الشبكان من الداخل ولـكن
هذا الستار لا يمكن ان يحول دون نفاذ انظار من يكون وراءه
إلى الموجودين في الكنيسة بدليل انه هو ، الذي يقيم بعيداً عن
الستار بعض الشيء ، قد استطاع تمييز الأشياء الواقعة وراء الستار
تمييزاً حسناً .. وحتى النوافذ رآها وميز نقوشها وزخرفها .

واختار جول لنفسه مكاناً بارزاً مواجهـــاً للجهة اليسرى من
الحاجز ، حيث تسقط اكبر كمية من النور ، وقرر ان يقيم في

هذا المكان عند حضوره الصلاة .

وعظم امل جول بلفت نظر هيلين عندما وجـد نفسه محاطـاً بجمهرة من الفلاحين ... انها المرة الاولى التي يجد فيهـا هــــذا الشاب السليم الطوية نفسه مسوقاً الى انتهاج السبل الملتوية وتحين السوانح لانتهازها ...

وقبل ان يدخل الكنيسة للصلاة اغـدق الصدقات على الفقراء والمعوذين دون حساب ...

امّا اصدقاؤه فقد عمدوا الى كسب ود اكبر عدد ممكن من الاهلين الذين لهم علاقة بالدير كالعمال وصغار الصناع .. ورغم كل ذلك لم يتحقق امله بانفاذ رسالة الى هيلين الا" في اليوم الثالث . فقد امر اتباعه بتعقب راهبتين كانتا مكلفتين بشراء بعض الحوائج للدير وكانت احداها على صلة باحد التجار . وقد استطاع احــــد جنود جول ، وكان راهباً فيما مضى ، كسب صداقة التاجر فوعدة بليرة ذهبية لقاء كل رسالة تصل الى نزيلة الدير هيلين دي كامبيريالي .

وقال التاجر عندما فوتح ، للمرة الاولى ، بهذا الحديث :

ـ ماذا ؟ رسالة لزوجة قاطع الطرق !

كان هــــذا الاسم قد شاع في كاسترو كلها بالرغم من انه لم يكن قد مضى اسبوعان على وصول هيلين اليها ونزولها في ديرها . واشد ما كان تشوق الشعب شديداً الى سماع كل تفاصيل المأساة ! .

واضاف التاجر الصغير : هذه متزوجة على الاقل ! ولكن كم

هن السيدات اللواتي يتلقين من الخارج اشياء اخرى غير الرسائل.

. . .

تعرض جول ، في رسالته الاولى الى حبيبته ، الى وصف ادق التفاصيل عن اليوم المشؤوم الذي لقي فيه فابيو حتفه . وانهى رسالته بقوله : هل تمقتينني ؟

وجاءه جواب هيلين ، في سطر واحد ، يقول انها لن تفكر في مقت احد ولكنها سوف تقضي كل ايامها جاهدة في سبيل نسيان ذاك الذي اورد اخاها موارد التهلكة ..

واسرع جول يجيبها ملقياً اللوم على المقادير وصروف الدهر ، متبعاً الطريقة الافلاطونية التي كانت من زي ذلك الزمان ..

« انت تريدين اذاً ضرب عرض الحائط باقوال الله التي نقلتها الينا الكتب المقدسة ؟ الم يقل الله « تترك المرأة اباها وامها وتلتصق بزوجها » هل تجرؤين على الزعم انك لست زوجتي ؟

هلاّ تذكرت ليلتنا في سان - بيير ؟

عندما بزغ الفجر الانور من وراء مونت كافي ، القيت بنفسك تحت قدمي مستسلمة استسلاماً تاماً ..

لقد كان بامكاني امتلاكك لو شئت ذلك . فما كان بمقدورك الصمود امام سورة الحب العاصف الذي انطلق في كل كيانك ...

وبغتة ساورتني فكرة التضحية .. التضحية التي كنت أريدها

دائماً على مسمعيك ، والتي كان باستطاعتك ان تجيبيني عليها ، وان كنت لم تفعلي ، بانها لم تخرج ابداً عن حيز الاقوال الوهميـة الى مجال الاعمال الملموسة ..

وبرقت امام ناظري فكرة انارت امامي السبيل .. فقد خيل اليّ ان القدر كان حكيماً عندما هيأ لي هـذه الفرصة كي ابرهن لك عن صدق ماذهبت اليه .. وقد انقادت لي المناسبة بسهولة ما كنت اتصورها . فها انت بين ذراعي مجردة من كل مقاومة وكل ارادة ، أتذكرين ؟ .. وحتى فمك لم يجرؤ على الرفض ...

وفي تلك اللحظة قرع جرس السلام المريمي الصباحي في دير مونت كافي وبلغت دقاته اسماعنا ..

وقلت لي :

- قم بهذه التضحية من اجل المادونا ، ام الطهارة والنقاء ...

كانت فكرة هذه التضحية ، كما ذكرت ، قد راودتني ، منذ لحظات ..

ووجدت انها التضحية الوحيدة الحقيقية التي استطيع القيام بهـا حيالك طوال عمري ..

ولست اكتمك ان الدهشة قـــد خالطت نفسي عندما وجدتك تردين عين الفكرة التي ساورتني ..

واثّر فيّ رنين جرس السلام المريمي البعيد ، وها انا اعترف بهذا ، فاجبتك الى رجائك ..

ولكن التضحية لم تأت كاملة بالنسبة اليك فقد رأيت ان اضع امر اتحادنا في المستقبل تحت حماية المادونا . فقد كنت احسب الف حساب للعقبات الخليقة بالبروز في سبيلنا ، ليس بسببك انت ، انما بسبب عائلتك الغنية النبيلة .

بت اعتقد ان ثمة قوة عليا قد تدخلت في الامر .. فكيف انتهت الى اسماعنا دقات ناقوس مونت كافي عن بعد سحيق ، من فوق اشجار الغابة المتمايلة ، تلك اللحظة ، مع هبات نسيم الصباح ؟ ..

هل تذكرين ؟ انقيت بنفسك فوق ركبتي وتناولت الصليب المعلق بعنقي ، وعلى ذلك الصليب اقسمت انك ، في اي مكان وجدت ، ومهما تكن العقبات المبثوثة في طريقك ، مستعدة لوضع نفسك تحت تصرفي المطلق كما كنت في تلك اللحظة عندما بلغ فيها السلام المريمي اذنيك من مداه السحيق ... وكل ذلك متوقف على اشارة مني ...

والآن ، استحلفك بالحب الذي كنت تحملينه لي حينذاك ، فهل تناسيتينه كما اخشى ؟ .. واذا كان ذلك فبحق حياتك .. استقبليني الليلة في حجرتك بالدير او في حديقة هذا الدير ... أنا ، زوجك امام الله ، آمرك بذلك ...

لم تستجب هيلين فوراً لرغبة جول ولم تحقق له امنيته الغالية بل دام تبادل الرسائل الطوال بين الحبيبين المتجافيين متـ[illegible]دة

اخرى ولكن الحب تغلب في النهاية فانصاعت هيلين لرغبات حبيبها المعذب ...

ولشد ما كان الم جول هائلا عندما لمس ان هذه الفتاة ، التي كانت متيمة به حباً ، قد تنكرت له واصبحت كأنها غريبة عنه تعامله بتأدب وتهذيب وبرود ! .

واذا كانت هيلين قد قبلت مواجهة جول في الحديقة فما ذلك الا براً منها بقسمها المغلظ واحتراماً لوعدها المعطى ..

كانت المغامرة قصيرة : فبعد لحظات قلائل تغلبت كرامة جول التي اثارتها احداث الاسبوعين الاخيرين ، على المه العميق وجرح فؤاده الناغر ..

قال في نفسه : لقد ماتت هيلين التي عرفتها وانتهى الامر . . وكأني ارى قبر هذه الفتاة التي وهبت نفسها لي ، في البانو ، مدى الحياة . وسرعان ما اصبح شغل جول الشاغل اخفاء دموع اسالتها من عينيه الطريقة التي تعمدتها هيلين في مخاطبته حين راحت تزجي له الحجج والبراهين التي تبرر تبدل عواطفها نحوه ، هذا التبدل الطبيعي ، بعد موت اخيها .

واجابها جول بهدوء وتؤدة :

ـ انك لم تبري بقسمك . فقد رفضت استقبالي في الحديقة . ولم تقفي مني الموقف الذي كنت عليه حين بلغت مسامعنا دقات السلام المريمي المنبعثة من دير مونت كافي . احنثي بقسمك ان كنت

تستطيعين . امّا انا فلن انسى اي شيء والله على ما اقول شهيد !

وبعد ان فرغ من هذه الاقوال غادر النافـذة ذات القضبان حيث اقام حوالي الساعة . من كان يتصور انه سيعمد هو إلى بتر هذه المقابلة التي طالما سعى اليها وحلم بها ؟ لقد مزقت هذه التضحية روحه تمزيقاً .. وفكر انه كان حرياً باحتقار هيلين لولم يحبها على تأدبها وتكلفها معه باثارة ندامتها وتبكيت ضميرها .

وخرج من الدير قبـل بزوغ الفجر . وبادر فوراً إلى جواده فامتطاه بعد ان اصدر امره الى رجاله بانتظاره في كاسـترو اسبوعاً كاملا يعودون بعده الى الغابة . كان نشوان يأساً !..

ومشى اول امره باتجاه روما . وخاطب نفسه قائلا :

ـ ماذا ؟ اني ابتعد عنها ! ماذا ؟ لقـد غدونا غريبين ! آوه يا فابيو ! لـكم كان انتقامك مريعاً !

واطلق لجواده العنان فراح يعدو به عبر الروابي والوهاد وكانت الافكار القاتمة لاتفتأ تطن في رأسه طنيناً مزعجاً :

قال في نفسه : لن يعدم ، من كان في مثل سني ، مخرجاً من هذا المأزق .. فلأحب امرأة اخرى ! ..

واحس يأسه يتضاعف عندما راودته هذه الفكرة .. لقد ادرك ادراكاً تاماً انه لن يكون في حياته سوى امرأة واحدة .. لشد ماراعه الالم الذي يعتصر فؤاده اذا مافاه بكلمة الحب امام هيلين اخرى .. ان هذه الفكر تكاد تمزقه تمزيقاً .

واخذتـه نوبـة ضحك اصفر مرير .. ها انا كأبطال اريوست تماماً . . اولئك الابطال الذين يسافرون منفردين في البقاع المقفرة هربا من واقعهم عندما يكتشفون ان حبيبتهم قد خانتهم وارتمت في احضان بطل آخر .. ولكن حبيبتي ليست مجرمة الى هذه الدرجة .

وانهلت مدامع الفتى بعد نوبة الضحك المجنون التي انتابته . ان الخيانـة لم تبلغ بهيلين مبلغ الارتماء بين ذراعي حبيب آخر . وكل مافي الامر ان روحها البريء الساذج قد استسلم للقصص الفاجعة التي رويت على مسامعها عني . ومما لاريب فيه انهم صوروني لناظريها قاتلاً سفاحا ومسبباً لهذه الحملة التي رميت من ورائها ، الى قتل اخيها . وربما مضوا الى ابعد من ذلك فذكروا لها الفكرة القذرة الدنيئة القائلة اني تعمـدت قتل اخيها كي تصبح هي الوارثة الوحيدة لثروة دي كامبيريالي الواسعة .. وانا .. لقد ارتكبت حماقة تركها مـدة اسبوعين عرضه لاغراء اعدائي واغوائهم .

لابد لي من الاعتراف باني كنت علة هذا الشقاء العظيم الذي الحقته بي السماء .. فانا لم اعرف كيف ادير دفة حياتي واوجـه سفينة حبي الى بر الامان . . . يالي من مخلوق تعيس ، حقير ! ان حياتي لم تحمل الخير لاحد ولا حتى لنفسي ! ..

وراودت جول فكرة الانتحار .. ان جواده يسير على شاطيء البحر فلماذا لايلقي بنفسه بين امواجه فيريح ويستريح ؟

ماذا بقي له بعد الان ؟ بعد ان تخلى عنه المخلوق الوحيد الذي

كان يوحي اليه الامل بالسعادة في هذه الحياة ؟

ولكن فكرة مباغتة اوقفته : لو انه وضع لحياته حداً .. فماذا يحدث ؟ لن تبقى هيلين ، دون شك ، على ولائها لذكراه بل ستجد نفسها ذات يوم مسوقة الى الزواج بسيد روماني غني وجيه . وستفقد روحه نعمى الهدوء الى الابد .. وهكذا فلن يجد السبيل إلى نسيان هيلين حتى بالموت .. زد على ذلك ان هيامه بها سوف يكون له من منــــه جزاء وقصاص تنزلها به السماء لقـــاء كل ما ارتكب من آثام ...

وعاد يقول في نفسه : لو كانت هيلين قد اصبحت زوجتي اذاً لالتمست لي العذر في قتل أخيها فهو اكبر مني سناً وأشد مراساً واعظم قوة وهي تعلم علم اليقين اني لم اعرب قط عن حقدي عليه . ان الف عذر كان خليقاً بالبروز في ذهن زوجتي ليثبت لهـا اني لم اكن المتجني في قتل فابيو .. ألم أقل لها بعد حادثة اطلاق النـار علي : ماذا تريدين .. ان الشرف يحتم عليها ذلك .. انا لا الوم اخاً يذود عن عرضه . .

وبعد ساعات طويلة بلغ جول المكان الذي عسكرت فيه فرقته ووجد الفرقة متأهبة للسير فابدل القائد الشاب جواده ومشى على رأس جنوده . ولم يلتقوا باحد من الاعداء في ذلك اليوم ، كما ان جول لم يسأل عن السبب الذي حدا بهم إلى هذا المسير : ماذا يهمه ؟ الواقع انه ، ما ان رأى نفسه على رأس جنوده ، حتى عاد

ينظر الى الحياة نظرة اخرى ..

فكر : اني ، بكل بساطة ، احمق مأفون .. لقد اخطأت في مغادرة كاسترو .. ان هيلين ، على الارجح ، ليست مخطئة كما صورتها غضبتي الرعناء .. كلا لا يمكن ان تتخلى عني روحها الطهور الصافية التي انبتت فيها اولى أزاهير الحب اليانعة ! . لقد حملت لي عاطفة صادقة لاريب فيها .. الم تعرض علي ، اكثر من عشر مرات ، استعدادها للهرب معي ، انا الذي لم اكن املك شروى نقير ؟ . . الم تحدثني مراراً بانها على استعداد لمرافقتي الى احد كهنة مونت كافي يعقد لي عليها ؟ كان ينبغي لي ان آخذ منها ، في كاسترو ، موعداً آخر ، فاحاول اقناعها بالمنطق .. ! الله ! ألا ليت لي صديق واحد افتح له مغاليق قلبي واسأله نصحاً وتوجيهاً !

وفي نفس هذا المساء ، حادت الفرقة عن الطريق الكبرى لتدخل الغابة ..

ودنا جول من الامير وسأله السماح له بالبقاء اياماً اخرى في المكان الذي حدثه عنه سابقاً .

وصرخ فيه فابريس : إذهب .. بصحبة كل الشياطين ! أتعتقد ان لاشغل لي الا الاهتمام باعمالك الصبيانية ؟

وبعد ساعة كان جول يعود على اعقابه الى كاسترو ..

ووجد رجاله بانتظاره كما امرهم .. غير انه حار في امره كيف يكتب الى هيلين بعد الترفع الذي عاملته به .

وجاءت رسالته الاولى لاتضم سوى سطر واحد :

« هل تريدين استقبالي ، الليلة القادمة ؟ »

وجاء الجواب : « باستطاعتك الحضور »

لقد خيل لهيلين ، بعد مغادرة جول لها ، انها فقدته إلى الابد ودهمتها حينذاك افكار سود ووجدت المبررات لهذا الشاب التعيس: لقد كانت قد اصبحت زوجته قبل لقائه المشؤوم باخيها في ساحة المعركة ...

وهذه المرة لم تستقبل هيلين حبيبها بذلك البرود الذي لمسه في لقائهما الاول .

كانت هيلين ، وراء قضبان النافذة ، راعشة الاوصال . . وراعها ان تجد في حديث جول تلك اللهجة الرسمية المؤدبة التي اسمعته اياها في لقائهما الاول .. وادركت وقع مثل هذا البرود في قلوب المحبين ..

كان يحدثها بلهجة محام يدافع في قضية حيوية : انه يحاول اثبات دعواه القائلة انها كانت قد اصبحت زوجته امام الله قبل نشوب الموقعة المشؤومة ..

وتركته هيلين يتحدث وقد خشيت ان تأخذها نوبة بكاء إن هي اجابته بغير الكلمات المقتضبة ..

وافترقا على ميعاد جديد يتم في الغداة ..

وخرج جول وهو لايدري ما اذا كان استقبالها له حسناً

ام سيئاً ..

وفكر : ارى ان يوماً سيأتي اضطر فيه الى اختطافها من بين جدران هذا الدير ..

وراح يفكر في الطريقة التي تتيح له الدخول الى الدير عنوة. وكان هذا الدير الغني يستخدم عدداً كبيراً من الخدم اغلبهم من جنود قدماء يقيمون جميعاً في شبه ثكنة تطل نوافذها على الممر الضيق الذي يؤدي من الخارج الى الباب الداخلي الذي يفتح في جدار قاتم ، شامخ ، تقوم على حراسة الباب الراهبة البوابة. والباب متين مصفح بالحديد وهو قلما يفتح ليلا .

• • •

عاد الى العاشقين ، قليلا قليلا ، ذلك التفاهم القديم كما غدت احاديثهما متصفة بالود الذي تذوقاه في مواعيدهما في حديقة قصر دي كامبيريالي بالبانو في ايامها السعيدة الخالية ..

ووجد جول ان حبيبته شديدة انشغال الفكر ذات مساء وعلم ان امها قد قدمت إلى الدير من روما لزيارتها وتمضية عدة ايام في الدير وكانت هذه الام تعطف على ابنتها عطفاً اكيداً وكثيراً ما اعربت عن هذا العطف بالدفاع عنها وتقدير نزعات قلبها الفتي تقديراً عظيماً وهذا ما كان يحمل ضمير الفتاة عبئاً ثقيلا لاضطرارها الى خداع هذه الام الحنون البرة . . فهل باستطاعتها ان تخبرها انها مازالت

تستقبل الرجل الذي حرمها من اخيها ؟ وصرحت هيلين لجول بانها لن تقوى قط على اطلاع امها على خلجات فؤادها وما يتم بينهما في الخفاء فلا مندوحة لها من اللجوء الى الكذب للرد على كل سؤال تطرحه عليها . وادرك جول كل الاخطار المحدقة بها . ان مصيرهما متوقف على كلمة واحدة تفوه بها السيدة دي كامبيريالي .

ـ سأحضر غداً في ساعة مناسبة وسأعمد الى انتزاع احد قضبان هذه النافذة فتتسللين منها الى الحديقة ثم أمضي بك إلى احـــد كهنة هذه المدينة فيعقـــد لنا وينتهي الامر . ثم اعيدك إلى هذه الحديقة قبل بزوغ الفجر . وما ان تصبحين زوجتي حتي أطمئن الى المصير فاذا شاءت امك ابتعدت عنك عدة اشهر تكفيراً عن النكبة القاسية التي اصبتم بها على يدي ..

واضاف جول عند مارأى ان هيلين قد وافقته على رأيه :

ـ ان الامير يدعوني للالتحاق به ، ثمة دوافع كثيرة تدعوني الى تلبية ندائـه اهمها الشرف . وعرض هو الشيء الوحيد الذي يكفينا مؤونة المتاعب في المستقبل . فاذا كنت لاتوافقين فلنفترق منذ هذه اللحظة والى الأبد .. وسأمضي في نفسي ألم عضوض وندامة قاتلة وسألعن نفسي لأني كنت أبله فصدقت قسمك المغلظ ..

وبكت هيلين ... وهتفت :

ـ يالله ! . أي ألم عظيم سوف اسببه لأمي !

ثم انها وجهت كلامها إلى حبيبها قائلة :

ـ ولكن هلاّ فكرت في انهم قد يكتشفون فعلتنا سواء في ذهابنا أو ايابنا .. فكر في الفضيحة التي سوف تحدث .. فكر في الموقف الحرج الذي سوف نزج به أمي ! فلننتظر ذهابها الذي سيكون بعد عدة ايام .

ـ انك تحملينني على الشك في الشيء الذي كنت احسبه اقدس ما في الوجود :

شرفك وقسمك ! إما ان نتزوج غداً او نفترق ، هذه اللحظة ، إلى الابد ..

لم تستطع هيلين المسكينة ان تجيب بغير الدمع الهتون .. لقد روعتها اللهجة الحازمة القاسية التي خاطبها بها حبيبها . أتراها قد استحقت احتقاره حقاً : أهذا هو حبيبها الذي عرفته ، في خاليات الايام ، طيّعاً عطوفاً رحيماً ؟ ..

ولم تر هيلين بدأً من الانصياع لرغبات جول أخيراً .. فودعها ومضى واقامت هي تترقب الليلة القادمة على قلق ممزق فظيع . . ولو كانت تترقب موتها المحتوم لما عبث بها ألم أشد وأقسى !

ان العزاء الوحيد الذي تجده هيلين في محنتها القاسية هو ماتراه من حب جول واخلاصه ، وعطف امها وحدها .

وأمضت ليلة لم يعرف الوسن فيها طريقه الى عينيها . . كانت فريسة لتردد فتاك وتشكك مريع .. وقد دهمتها لحظات ضعف وتخاذل فهمت بالنهوض والسير الى حجرة امها لتفضي اليها بكل شيء ..

وادركها الصباح اخيراً وقد غزا الشحوب محياها شديداً مريعاً .
وما وجدت نفسها امام والدتها حتى انهارت كل مقاومة فيها متناسية
كل قراراتها الحكيمة التي حزمت امرها عليها في الليلة الفائتة ..
وصرخت الام مرتاعة :
ـ ماالذي حدث لك بحق الاله العظيم ! ؟ ألا قولي ماذا فعلت
او ماذا ستفعلين . ان صمتك هذا اشبه بخنجر ماض رهيف يمزق
سويداء قلبي تمزيقاً ...
كان الحنان الذي تكنه هذه الام الرؤوم لابنتها بالغاً درجـــة
لايرقى اليها الشك وهيلين تعرف ذلك حق المعرفة ..
وانهارت الفتاة على قدمي امها ..
وادركت الام ان صدر ابنتها ينطوي على سر خطـير جعلها ،
في الماضي ، تتجنب لقاءها ماستطاعت الى ذلك سبيلا . ولما سألتها
في ذلك اجابت هيلين انها لن تفارقها بعد الآن لحظة واحدة شرط
ان تكف عن سؤالها بمثل هذا الالحاح ..
وبعد هذه الكلمات المبهمة الغامضة جاء الاعتراف الكامل من الفتاة
بعد أن ضاق صدرها بسر لوّعها وأذاقها جام الألم مترعاً ..
اشد ماروع السيدة دي كامبيريالي علمها ان قاتل ابنها قريب منها
يلاحق ابنتها ملاحقـة ملحّة كما اثلج صدرها تحققها من أن ابنتهـا
لم تفرط قط بواجبها حيال عائلتها او شرفها او كرامتها .
لم تلجأ السيدة فيكتوار إلى العنف بل رأت ان الحكمة تفرض

عليهـا الاستعانة بالحيلة والمكر علها تستطيع ابعاد هذا الرجل من طريق ابنتها .

اما هيلين فقـد مزق القلق نفسها شر ممزق وعصفت الأشواق بفؤادها عصفاً عنيفاً .. كانت نفسها حزينة حتى الموت . . تبحث عن مخرج فلا تجد وتسعى إلى متنفس فلا توفق ..

وشرعت السيدة دي كامبيريالي فوراً بتنفيذ خطتها فراحت تحدث ابنتها حديثاً متزناً ساقت فيه الوف البراهين مـــدللة بخطل رأي العاشقين في ان يعمدا الى الزواج سراً فزواج من هذا النوع يبقى الى الابد ، وصمة عار تشين جبين المرأة طوال حياتها .. فلمـــاذا لايلجئان الى زواج علني باستطاعتها اتمامه لو قبلت هيلين بان تؤخر برها بقسمها لحبيبها الكريم ثمانية ايام فقط .

وشرحت خطتها لابنتها : تمضي إلى روما وتصرح لزوجها بان ابنتها قد تزوجت من جول سراً قبل موقعة كيامبي بايام كثيرة وقد تم عقـــد قرانها في نفس الليلة التي خرجا فيها متنكرين في زي الرهبان ، ليلة التقى بها والد هيلين واخوها ..

ثم ان الام عمدت إلى تنكب طريق ابنتها ، والابتعاد عنها كل ذلك اليوم ..

وفي المساء سطرت هيلين إلى حبيبها رسالة بريئة مؤثرة ، حدثته فيها عن الصراع العنيف الذي يعن في نفسها تمزيقاً .. وانتهت بان طلبت اليه منحها مهلة ثمانية ايام ..

اشد ما كانت دهشة جول برانسيفورت عظيمة عندما انتهت اليه رسالة هيلين وكان قد فرغ تواً من امر الكاهن الذي قبل ان يعقد له عليها سراً ..

وأول ماخطر له ان يقابلها ولكنها كانت قد اعلمته في رسالتها الاخيرة ان هذا مستحيل لأن امها قد طلبت ان تنصب لها خيمة في الحديقة ، محتجة بشـــدة الحر ، وستقيم فيها ترقب العاشقين وتحول دون كل لقاء ...

وقال جول في نفسه : انها تلمح الى نصحي بعـدم اللجوء الى فكرة اختطافها بالقوة ... ياللهذه الفتاة من مخلوقة ضعيفة واهيـــة الارادة ! ..

ولم يطل بجول تردده فقد امتطى صهوة جواده وانطلق به ينهب الأرض نهباً متجهاً إلى غابة فاكجيولا ...

. . .

انتهت السيدة دي كامبيريالي ، بعد تفكير طويل ، الى هـــذا القرار : كان زوجها على سرير الموت وقد يأس من استطاعته الاقدام على الانتقام من برانسيفورت فكان هذا اليأس مما ادى الى التعجيل بدنو منيته . وعبثاً حاول اغراء بعض الاشقياء بالقيام بهذا الانتقام. ان واحداً منهم لم يقبل التعرض لاحد قواد آل كولونا وهم لم ينسوا بعد خبر القرية التي احرقت بساكنيها انتقاماً لجندي من جند الامير قتل في تلك القرية .

كانت السيدة دي كامبيريالي تملك من الاراضي مساحات واسعة في مملكة نابل . وقد امرها زوجها باستحضار رجال اشداء من فلاحي تلك الاملاك ليسند اليهم مهمة الانتقام غير انها اكتفت بالتظاهر بطاعته : كانت تعتقد ان ابنتها مرتبطة بجول برباط لاتنفصم له عرى..

ورأت ، بثاقب بصرها، ان الحل المفضل هو نزوح جول عن ايطاليا فترة من الزمن كأن يذهب الى اسبانيا للاشتراك في الحملات الحربية ضد الثائرين من أهل الفلاندر ، وهنالك ، إما أن يلاقي حتفه فتحل المشكلة جذرياً ، وإما ان يعود حياً فلا تجد مناصاً ، في هذه الحالة ، من زواجه بابنتها فتهب لهذه الابنة املاكها في نابل ويغير جول رانسيفورت اسمـــه ويتخذ اسم تلك الاملاك ثم يصحب زوجته ليقيمان عدة سنوات في اسبانيا ثم يعودان وعند ذلك فقط قد تجد السيدة فيكتوار الشجاعة الكافية لرؤية صهرها العتيد بعد مرور هذا الزمن الطويل ..

ولكن .. ها قـــد جاء اعتراف فتاتها فقاب خططها رأساً على عقب .. فالزواج من قاتل ابنتها لم يعد ضربة لازب ..

بينما كانت هيلين تخط الرسالة الى حبيبها كانت الام تسطر رسالة هي الاخرى الى بيسكارا وشيبيني ، من وكلائها في املاكها ، تأمرهما بارسال عدد من فلاحيها الاشداء الموثوقين الى دير كاسترو .. ولم تخف عليهما ان الغاية هي الانتقام لمقتل سيدهما الشاب فابيو .

ومضى الرسول بهذه الرسالة قبل انقضاء ذلك النهار ..

٤

في اليوم التالي اتخذ جول طريقه الى كاسترو يصحبه ثمانية من جنوده الذين ابدوا رغبة في مرافقته معرضين انفسهم لغضب الامير الذي أنزل احياناً عقاب الموت بالذين اقـــدموا على مخالفة اوامره مثل هذه المخالفة .

وكان لدى جول خمسة جنود آخرون في كاسترو فيكون مجموع افراد حملته اربعة عشر .. عدد ضئيل بالنسبة المهمة التي كان عازماً على القيام بها ذلك أن الدير الذي يروم مهاجمته لايقل تحصيناً عن قلعة منيعة .

كان يترتب عليهم اجتياز الباب الاول اغتصاباً او بالحيلة ثم يعبرون ممراً لايزيد عن خمسين خطوة . وعلى الشمال تقوم النافـذة المشبكة بالحديد ، كما ذكرنا ، وخلف هذه النافذة يربض ثلاثون او اربعون خادماً من قدماء الجنود متأهبين لصب نار حامية من هـذه النافذة ما ان تعطى اشارة الخطر .

كانت رئيسة الدير ، وهي امرأة حكيمة ، تتخوف من غزوة يشنها على الدير الزعماء من آل اورسيني او الامير كولونا او ماركو سيارا أو غيرهم من زعماء الجوار . فكيف تقوى على مقاومـــة

ثمانمائة رجل يقدمون على احتلال مدينة صغيرة مثل كاسترو ويتخيلون ان الدير غاص بالذهب ؟

كان الدير عادة يضم خمسة عشر أو عشرين مقاتلاً يقيمون في الثكنة الكائنة على يسار الممر المؤدي إلى باب الدير الثاني ، وعلى يمين هذا الممر يرتفع جدار عال يستحيل اختراقه . وفي نهاية الممر يوجد باب حديدي يفتح على رواق ذي قناطر يفضي إلى حوش الدير الداخلي والى يمين هذا الحوش تقع الحديقة . وتقوم على حراسة هذا الباب الحديدي الراهبة البوابة .

عندما وجد جول ورجاله الثمانية أنفسهم على ثلاثة مراحل عن كاسترو توقفوا في فندق في الطريق ليمضوا ساعات الحر اللاهب . وهناك فقط شرح لهم خطته ورسم على الرمل مخططاً للدير الذي ينوي مهاجمته .

قال مخاطباً رجاله :

ـ نتناول عشاءنا في الساعة التاسعة مساء خارج المدينة وعند انتصاف الليل نلحق برفاقنا الخمسة الذين يقيمون بانتظارنا قرب الدير وعندئذ يقوم احدنا بتمثيل دور رسول قادم من روما يستدعي السيدة دي كامبيريالي للشخوص الى المدينة حيث يعاني زوجها النزع الاخير. وسنحاول اجتياز الباب الاول دون ضجة ذلك اننا اذا بدأنا القتال عند هذا الباب سهلنا مهمة الحراس فيصلوننا ناراً حامية عندما نحاول اجتياز الممر الضيق المؤدي الى الباب الثاني . ان هذا الباب من

حديد ولكني املك له مفتاحاً واحسب ان من السهل علينا اجتيازه هذا المساء . ان غايتي هي اختطاف احـــدى نزيلات الدير وليس واحدة من الراهبات . لاينبغي لنا اللجوء الى اسلحتنا الا عنـد الحاجة القصوى . فاذا ما استعملنا غداراتنا قبل بلوغنا الباب الثاني فسوف تسارع الراهبة البوابة إلى مناداة البستانيين الشيخين الذين ينامان في الداخل فيرفعان مزاليج الباب الثقيلة التي تتركها البوابة عادة دون رفع نظراً لثقلها وعدم توفر القوة الـــكافية في امرأة للقيام بذلك . واذا فرضنا اسوأ الفروض ، وحـــدث ماذكرت لكم ، عندئذ يترتب علينا تهديم الجدار وإحداث ثغرة فيه نستطيع النفاذ منها وهذا مايتطلب منا عشر دقائق ، وسأتقدمكم إلى هذا الباب مهما يكن من أمر .. لقد رشوت احد البستانيين غير اني لم افصح له عن الخطة التي اعتزم تنفيذها .. وما أن نجتاز هذا الباب حتى ننحرف إلى اليمين فنجد أنفسنا في الحديقة وعندئذ نبدأ القتال . يجب قتل كل من يعترض سبيلنا . ولا بد من تذكيركم بانه لاينبغي لنا إستعمال الاسلحة النارية بل الاكتفاء بالسيوف والخناجر ذلك أن دوي غدارة واحدة يكفي لايقاظ المدينة كلها فتخف لملاقاتنا عند الخروج .. وبعد ذلك أصعد أنا إلى الدير من الباب الصغير المفضي إلى الحديقة يصحبني من يكون منكم قريباً الي وان تنقضي ثلاث دقائق حتى نعود وقد حملنا إمرأة أو إمرأتين فوق أذرعنا دون أن نسمح لهما بالسير ونسارع الى مغادرة الدير والمدينة بعد أن أكون

قد تركت اثنين منكم عنـــد باب المدينة يطلقون العيارات النارية الفترة بعد الاخرى لاخافة الاهلين فلا يطاردوننا ..

وكرر جول هذه التعليمات مرتين على مسامع رجاله .

وقال لهم : هل فهمتم جيداً ؟ الرواق المظلم ، الى اليمين الحديقة الى اليسار الحوش . يجب الا تخطئوا .

وصرخ الجنود : اعتمد علينا !

ثم انهم مضوا ليعاقروا الخمرة . ولم يذهب معهم العريف بل طلب مقابلة القائد ولما انفرد به قال :

ـ لاشيء أسهل من مشروع سعادتـكم . لقد سبق لي واغتصبت ديرين في حياتي وسيكون هذا هو الثالث : ولكن عـــددنا ضئيل جداً . فاذا ما اضطرنا العدو الى تقويض الجـــدار الذي يقوم فيه الباب الثاني وجب ان نحسب ان الحراس لن يقفوا خلال ذلك مكتوفي الايدي اثناء هذه العملية الطويلة وسوف يسقط اكثرنا بنيران غـــداراتهم وعندئذ يسهل عليهم انتزاع المرأتين منا اثناء خروجنا . مثل هذا ماحدث لنا في دير بالقرب من بولونيا : قتلوا منا خمسة رجال وقتلنا منهم ثمانية ولكن قائدنا لم يظفر بالمرأة. اقترح على سعادتـكم شيئين إثنين : أعرف أربعـــة من الفلاحين يقطنون قريباً من هذا الفندق وقد سبق وأبلوا بلاء حسناً في جيش سيارا وهم جديرون بشن هجوم يستغرق طوال الليل يقاتلون فيه كالاسود لقاء قطعة ذهبية واحدة . فهم يؤملون السطو على بعض

فضيات الدير ، هذا لا يهم ، الخطيئة عليهم ، اما انت فتدفع لهم لقاء اختطاف امرأة ، هذا كل مافي الامر .

اما اقتراحي الثاني فها كه : إيغون فتى مثقف داهية ، كان طبيباً عندما قتل ابن حميه وفر الى الغابة . باستطاعتك ان ترسله قبل هبوط الليل بساعة الى الدير يطلب عملا ثم ينخرط في سلك الحراس وسوف يسقي الحراس حتى يسكروا كما يستطيع تبليل زناد غداراتهم بالماء .

ولسوء حظ جول انه قبل اقتراح العريف . وما نفذ الاقتراح حتى اضاف :

ــ سوف نهاجم ديراً ، سيكون نصيبنا « الحرم الاعظم [1] » زد على ذلك ان هذا الدير تحت حماية المادونا مباشرة ...

وصرخ جول وكأنه يستفيق من حلم عندما طرقت اذنيه هذه الاقوال :

ــ اني مصغ اليك . ابق معي .

ومشى العريف الى الباب فاغلقه وعاد الى جول وانخرط الاثنان

---

(١) قصاص ديني ينزله البابا بالشاذ من رعيته اي يحرمه من ممارسة الشعائر الدينية (لقد تحدثت الصحف في الاوانة الاخيرة عن حرم اصدره البابا بحق حكومة الارجنتين على اثر الثورة التي نشبت فيها) المترجم

في صلاة دامت ساعة طويلة . وما أرخى الليل أسداله حتى تحرك الركب .

وعندما آذن الليل بالانتصاف عاد جول وكان قد دخل كاسترو وحده في الساعة الحادية عشرة ، ليصحب رجاله وكانوا ثمانية من الجنود وقد انضم اليهم ثلاثة من الفلاحين المدججين بالسلاح وضم اليهم الجنود الخمسة الموجودين في المدينة وهكذا وجد فرقته مكونة من ستة عشر رجلاً اثنان منهم متنكران في زي الخدم .

وفي تمام الساعة الثانية عشرة والنصف وصل جول ، المتنكر في زي الرسول القادم من روما ، الى باب الدير مثيراً ضجيجاً عظيماً وهو يصرخ كي يفتحوا دون تأخـــير لرسول قادم من قبل الكردينال وقد لحظ فسره ان الجنود الذين خاطبوه من النافـــذة المجاورة للباب الاول كانوا نصف سكارى . واعطى اسمه مكتوباً على ورقة وفقاً للعرف المتبع فحمل جندي هذا الاسم الى حارسـة الباب التي تحمل مفتاح الباب الثاني ويترتب عليها ايقاظ رئيسة الدير في مثل هذه الاحوال . وتأخر الجواب مدة ثلاثة اربعاع الساعـة خالها جول دهراً طويلاً وقد عانى الكثير من التعب في سبيل خنق كل حركة قد تنبعث عن اتباعه وعندما وصل جواب الرئيســـة بالموافقة دخل جول الى مهاجع الحرس بواسطة سلم يبلغ طوله اربعة اقدام لأن حراس الدير لم يشاؤوا تكبد عناء فتح الباب الكبير فصعد متبوعاً بالجنديين المتنكرين في زي خادمين وما قفز الى ثكنة الحراس

حتى التقى بعيني ايفون وكان كل الحراس قد سكروا بفضل اهتمامه وقال جول لرئيس الحرس ان اثنين من خدم آل دي كامبيريالي قد رافقاه كدليلين اثناء الطريق وطلب ان يسمح لهما بمرافقته فاجيب الى طلبه فوراً .

وقال لايفون : حاول ان تفتح الباب الكبير .

اما هو فقد بلغ الباب الحديدي بهدوء تام وهنالك وجد الراهبة البوابة الطيبة فقالت تخاطبه :

ـ لما كان الليل قد انتصف فاذا ما سمح لك بالدخول الى الدير صار حتماً على الرئيسة الكتابة الى المطران فوراً فتوفيراً لهذا العناء قد ارسلت راهبة صغيرة نرجوك ان تسلمها ماتحمل من رسائل .

واجاب جول : انه قادم من قبل آل دي كامبيريالي ولما كان السيد دي كامبيريالي قد دهمه النزع فقد أرسله الطبيب على جناح السرعة مزوداً برسالة مختصرة ثم كلفه باعطاء كل التفاصيل لزوجة المائت وابنته ، اذا كانتا ماتزالان في الدير والا فالى السيدة رئيسة الدير . ومضت حارسة الباب تنقل هذه الرسالة فلم يبقَ وراء الباب الا الراهبة الصغيرة التي أرسلتها الرئيسة . ومضى جول يباسطها الحديث وخلال ذلك ادخل يده من بين قضبان الباب وحاول فتحه ضاحكاً . وخافت الراهبة التي كانت شديدة الخجل واستاءت جداً من هذه المزحة . وهنا ارتكب جول خطيئته الكبرى . فقد وجد ان الوقت المناسب يمضي فرأى ان يعمد الى الرشوة فاخرج

قبضة من القطع الذهبية قدمها للراهبة ملتمساً منها ان تفتح له الباب .

كان ينبغي له ان يعالج الباب بالحديد وليس بالذهب ولكنه لم يجد الجرأة الكافية رغم انه لم يكن أسهل من الاطباق على الراهبة فهي لاتبعد عنه اكثر من قدم من الجهة الاخرى من الباب .

واطلقت الراهبة صرخة النجدة عندما قدم لها قبضة المال . وقالت انها ادركت من طريقة جول بمحادثتها انه ليس مجرد رسول : انه عشيق احدى الراهبات جاء يلتمس لقاء ..

هكذا فكرت .. وادركها خوف مجنون فراحت تحرك بكل قواها حبل جرس صغير كان في الحوش الكبير فاحدث رنيناً قوياً خليقاً بايقاظ الموتى .

وهتف جول بجماعته : لقد بدأ القتال . حذار حذار !

وتناول مفتاحه وادخل يده من بين القضبان وفتح الباب وقد استحوذت الدهشة على الراهبة الصغيرة التي سقطت على ركبتيها وراحت تتلو الصلوات والابتهالات وهي تصرخ طالبة النجدة . وكان ينبغي لجول اسكات هذه الفتاة الا انه لم يملك الجرأة الكافية ولكن احد رجاله تناولها واغلق فمها براحته .

وفي نفس اللحظة سمع جول طلقة غدارة في الرواق ، وراءه . كان إيفون قد فتح الباب الكبير فدخل بقية الجنود دون صخب . غير ان احد الحراس ، وكان اقل سكراً من رفاقه ، اقترب من النافذة وراعه ان يرى هذا العدد من الرجال في الممر ، فتصدى لهم

وحاول منعهم من التقدم . وكان يجب عليهم الاستمرار بالتقدم دون اي جواب غير ان احد الفلاحين الذين التحقوا بالجماعة مؤخراً اخرج مسدسه وأطلق النار على خادم الدير الذي كان واقفاً الى النافذة فأرداه قتيلا .

كان اطلقة النار وصراخ السكارى ، في ذلك الليل البهيم ، ضجيج ايقظ جنود الدير فهبوا من مضاجعهم ولم يكونوا سكاري مثل رفاقهم . واستطاع ثمانية او تسعة منهم الوثوب الى الممر واشتبكوا مع جنود برانسيفورت في إلتحام ضار .

لقد بدأ هذا الضجيج في الوقت الذي بلغ فيه جول الباب الحديدي واندفع مع مرافقيه الى الحديقة وانطلقوا نحو الدرج الصغير المؤدي الى جناح نزيلات الدير غير انه استقبل بخمس او ست طلقات نارية وسقط رفيقاه اما هو فقد اصيب برصاصة في كتفه الأيمن.

كان مطلقو هذه العيارات من رجال السيدة دي كامبيريالي الذين كانوا مقيمين في الحديقة بناء على أوامرها وقد استحصلت لهم على ترخيص بذلك من المطران . وتابع جول انطلاقه نحو الباب الصغير الذي يعرفه حق المعرفة وبذل كل جهد كي يغتصبه الا انه كان متيناً جداً وبحث عن رفيقيه فلم يتلق منهما اي جواب : لقد قضيا .. والتقى في الظلام بثلاثة من خدم آل كامبيريالي فاشتبك معهم بالسلاح الابيض .

وعاد يركض نحو الباب الحديدي كي ينادي جنوده فوجد هذا

الباب موصداً وقد رفع مزلاجاه الحديديان الثقيلان بعد ان ايقظ جرس الطواريء البستانيين الشيخين فاسرعا الى الباب فاوصداه .

وقال جول في نفسه : « لقد قطع علي خط الرجعة » ونادى رجاله ولكن عبثاً حاول كسر احد المزلاجين بواسطة سيفه وفي نفس اللحظة اصيب بجرح آخر من احد الخدم القادمين من الحديقة وكسر سيفه في معالجة المزلاج ..

واستدار فوجد نفسه محاطاً بعدد غفير من الرجال ، فدافع عن نفسه بخنجره ولحسن حظه ان الظلام كان دامساً فوقعت كل ضربات السيوف في درعه المتين فلم يصب بأذى ماخلا جرح مؤلم اصيب به في ركبته . واندفع نحو رجل سدد اليه ضربة سيف فارداه بضربة خنجر أصابته في وجهه ووفق الى انتزاع سيفه منه وعندئذ خيل اليه انه نجا .. وكان رجاله قد بلغوا الباب فاطلقوا خمس او ست طلقات عبر قضبانه ففر الخدم مذعورين .

وصرخ جول برجاله : لاتطلقوا النار باتجاهي .

واجابه العريف ببرود هائل : ها انت قد سقطت في مصيده وقد خسرنا ثلاثة رجال . سوف نقوض الجدار من الناحية المعاكسة لمكانك . لاتقترب من هنا فقد تصيبك طلقات النار . يبدو ان الحديقة غاصة بالاعداء .

فقال جول : هي غاصة بخدم آل كامبيريالي الادنياء .

وقطعت حديثها طلقات من الغدارات وجهت الى مبعث الصوت

ولجأ جول الى حجرة الراهبة حارسة الباب ولشد ما كان سروره عظيما لعثوره فيها على فانوس مضاء امام صورة المادونا فتناوله باحتراس شديد كي لا يطفئة وعلى نوره المرتعش راح يتفحص جرح ركبته الذي اورثه ألماً حاداً وكانت الدماء تنزف منه بغزارة .

واخذته الدهشة عندما اجال ناظريه في أنحاء المكان فوقعتا على امرأة مغمى عليها مستلقية فوق مقعد خشبي ولم يلبث ان عرف فيها ماريتا الصغيرة ، وصيفـــة هيلين المقربة ، وراح يهزها بعنف فاستفاقت باكية وقالت :

ـ ماذا أيها السيد جول .. اتراك تبغي قتل ماريتا صديقتك ؟

ـ أمجنونة انت ؟ قولي لهيلين اني استميحها عذراً لأني قـــد سببت لها اقلاقاً وان تتذكر « السلام المريمي » في مونت كافي .

ودوت في هذه اللحظة طلقات غدارات كثيرة في الممر : انهم جنود الدير يهاجمون رجاله .

وقال مخاطباً ماريتا : قولي اين هو المفتاح الصغير .

ـ لست اراه ولكن اليك مفاتيح مزاليج الباب الحديدي الكبير باستطاعتك الخروج .

وتناول جول المفاتيح وانطلق من الحجرة خارجاً :

واهاب برجاله : لاتضيعوا وقتكم في تقويض الجدار لقد حصلت اخيراً على مفاتيح الباب .

وخيمت لحظة صمت مطبق . وراح يحاول فتح المزلاج باحـــد

المفتاحين فاخطأ وأبدل المفتاح وأخيراً توصل الى فتح المزلاج ولكنه في اللحظة التي هم برفعه فيها أصيب بطلقة مسدس استقرت في ذراعه اليمنى فاحس فوراً ان هـذه الذراع تخذله وصرخ في رجاله : ارفعوا الرتاج الحديدي .

وسرعان ما اطبقت أربعة أكف قوية على الرتاج فرفعته .. وفتح الباب ودخل العريف وقال بصوت خفيض :

– لم يعد ثمة أي أمل . فنحن قد أصبحنا ثلاثة أو أربعـــة لم نصب بجراح وقد فقدنا خمسة من رجالنا .

وعاد جول يقول : لقـد نزفت مني دماء كثيرة . أشعر أني أكاد أفقد الحس ، مرهم ان يحملوني .

وعادت طلقات النار تدوي .. وسقط العريف الشجاع ميتـاً .

وكان ايغون قد سمع الامر الذي أعطاه جول للعريف القتيل فنادى جنديين باسميهما فحملا القائد الذي لم يكن الاغماء قد دهمه بعد فاشار على الجنود بنقله الى اقصى الحديقـة حيث يقوم الباب الصغير . وما بلغوه حتى هتف بهم جول : خمسون قطعة ذهبية لمن يفتح الباب .

ولكن هذا الباب تمنع على الرجال الثلاثة الغاضبين .. وبعد جهود غير مجدية سقط جول فريســة اغمـاء شديد . وامر ايغون الجنود بحمل القائد بالسرعة الممكنة اما هو فقد ولج حجرة الراهبة حارسة الباب .. واخذ بتلابيب ماريتا وقذف بهـا من الباب وهو يحذرها من ذكر اسم الشخص الذي عرفته .. ثم انه انتزع بعض قش من

تحت الفراش وحطم بعض المقاعـد وأشعل النار في الحجرة .. وما علت ألسنــة النار حتى فرّ باقصى ماتطيق ساقاه متحاشياً طلقات الغدارات التي كانت تنهمر عليه انهاراً ....

وعلى بعـد مائة وخمسين خطوة من الدير وجـد القائد مازال فريسة الاغماء وقـد مضى به جنوده مسرعين .. وبعـد دقائق قليلة كانوا خارج المدينة . واوقفهم ايغون : لم يكن قد بقي من الجماعة الا اربعة فقط ارسل اثنين منهم الى المدينـة وأمرهما باطلاق النار مرة كل خمس دقائق :

قال : حاولا العثور على رفاقكما الجرحي ثم اخرجا من المدينـة قبل انبلاج الصباح . سوف نسير في طريق كروس - روكا . واذا استطعتما اشعال النار في مكان ما فلا تترددا ..

كانوا قد اصبحوا على ثلاث مراحل عن المدينة عندما عاد الى مجول وعيه . وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء ارتفاعاً كبيراً .

وقدم له ايغون تقريره : لم تعـد فرقتك تضم أكثر من خمسـة رجال ثلاثة منهم مصابون بجراح . امّا الفلاحان الذان سلما فقد تناول كل منهما قطعتين ذهبيتين ثم وليا الادبار وقد بعث بالرجلين السليمين الى القرية المجاورة لاحضار طبيب .

ووصل الطبيب الشيخ سريعاً وهو يمتطي حماراً نشيطاً قوياً . ولم يكن قد قبل الحضور الا بعد ان هدده الجنديان باشعال النار في بيته . كما اضطرا الى اعطائه جرعات من الخمر كي يتغلب على خوفه

الشديد . وأخيراً شرع في العمل وقال لجول ان جراحه ليست ذات خطر قط .

وأضاف : ان جرح ركبتك ليس خطراً ولكنه سوف يتركك تعرج طوال حياتك إن أنت لم تخلد الى راحة تامة مدة اسبوعين أو ثلاثة .

ثم ان الطبيب عمد الى تضميد جراح الآخرين . وبعد ان فرغ من عمله ناوله ايغون قطعتين ذهبيتين فشكره شكراً كثيراً والتفت ايغون الى جول وغمزه بطرف عينه .. واخيراً ناولوا الطبيب جرعة كبيرة من الخمر افقدته الرشد فحملوه الى حقل قريب وارقدوه فيه ووضعوا في جيبه اربع قطع ذهبية ثمناً لحماره الذي اخذوه واجلسوا جول واحد الجنود الجرحي فوقه ثم ذهبوا فامضوا فترة اشتداد الحر في احدى الخرائب على شاطيء بحيرة هناك ثم انهم تابعوا مسيرهم عند هبوط الليل متحاشين المرور بالقرى القليلة في هذه الطريق .. وفي اليوم الثاني ، عند مطلع الشمس وجد جول نفسه في قلب غابة فاكجيولا ، في كوخ الفحامين الذي هو مقره العام .

٥

عثرت راهبات دير كاسترو غداة المعركة ، على تسع جثث مبثوثة في جنبات حديقة الدير فارتعن للمنظر ارتياعاً عظيماً . . . وكذلك وجدن ثمانية من حراس الدير مصابين بجراح بليغة مختلفة.

ابداً لم يعرف دير كاسترو الهلع الذي عمه في الصبيحة التالية لليلة المعركة المشؤومة بالرغم من ان الراهبات قد اعتدن سماع بعض طلقات النار تتجاوب اصداؤها هنا وهناك الا" انهن لم يشهدن قط مثل هذا المنظر المؤسي ..

لو أن جول برانسيفورت استطاع التفاهم مع واحدة من راهبات الدير أو نزيلاته اذاً لحالفه التوفيق ومشى النصر في ركابه فقد كان يكفي لو فتح له باب واحد من ابواب الدير الكثيرة التي تؤدي إلى الحديقة .. الا" انه لم يلجأ إلى الحيلة بل عوّل ، في سورة غضبه على نكث هيلين بعهدها ، عول علي اقتحام كل معقل وبلوغ هدفه عنوة واقتداراً ..

امّا هيلين فقـــد راعها ماسمعت من جلبة وقعقعة سلاح ودوي طلقات وادركها الهلع على مصير حبيبها .. وكل مافكرت فية ، اثناء نشوب القتال ، أن تستجيب الى رغبة حبيبها وتفر معه ما ان يبلغ مقرها ويدعوها إلى ذلك ..

ونقلت اليها ماريتا الوصيفة مارأته وحدثتها بالجراح الكثيرة التي اصيب بها جول المسكين .. كيف نصف اليأس المرير الذي غمر فؤاد هيلين غمراً ؟ .. لقد احست ان ساقيها تخذلانها فلا تقوى على النهوض ، وان عينيها قـــد غشيتا وحجب النور عنها غمام قاتم أربد ..

لشد ما انحت هيلين باللوم على نفسها ، على جبنها واستخذائها : لقد ضعفت وباحت لامها بسرها المكنون فكانت النتيجة الفاجعة مارأت وما سمعت .. كانت النتيجة المريعـــة اهراق دماء جول ، حبيبها المفدي ، وتعريض حياته لخطر ماحق في هجوم غير متكافيء لم يكن له فيه من سلاح سوى شجاعته وجرأته واقدامه ..

ودعي احد الحراس فحدث الراهبات المتشوقات الى سماع اخبار الهجوم قائلا :

ـ لم ارَ طوال حياتي أجرأ من هذا الشاب الذي كان يرتدي زي الرسول والذي قاد الهجوم بشجاعة خارقة لاتوصف !

واذا كانت الراهبات جميعهن قد اصغين إلى حديث الحارس باهتمام زائد فان هيلين كانت ، من بين الموجودات ، اشدهن تحفزاً واكثرهن استفساراً عن تفاصيل افعال زعيم العصابة الشاب ..

وخيل إلى هيلين ان كل عاطفة حملتها لأمها قد تبخرت من بين حناياها وذهبت بدداً .. وقد نشب نقاش حام بين الأم والابنة ، بين هاتين المرأتين التين كانتا ، قبل المعركة ، متحابتين حباً عظيماً

متآلفتين تآلفاً بعيد المدى ..

قالت هيلين تخاطب امها : ان الدماء الذكية التي أهرقت من جراح جول انما أهرقت بسبب ضعفي وتخاذلي عندما بحت الك بسري وكشفت لك امري ..

- اراك ماتزالين على حبك لقاتل اخيك .

- اني احب زوجي . ولولا سوء جدي ماتعرض له أخي ولا هاجمـــه ..

كانت هـذة الكلمات اللاسعة آخر ماتبادلتـه المرأتان خلال الايام الثلاثة الاخيرة التي فضتها الأم في دير كاسترو .

وفي غداة سفر السيدة دي كامبيريالي استطاعت هيلين التسلل من الدير منتهزة فرصة الفوضى التي عمت الحديقـة على أثر احضار عديد من العمال والمعماريين لاصلاح مالحق باسوار الدير من تخريب ولتقوية هذه الاسوار ومضاعفة مناعتها

وتنكرت هيلين ووصيفتها ماريتا بزي عاملتين واستطاعتا الخروج من الدير فاسرعتا تغادران المدينة الا انهما وجدتا الحراسة شديدة على ابواب كاسترو فارتبكتا ارتباكاً عظيماً ولم ينقذهما من هـــذا المأزق الحرج الا ذلك التاجر الصغير الذي كان يضطلع بايصال رسائل جول الى هيلين فقد ادعى انهما ابنتاه وتطوع لمرافقتهما حتى ألبانو ..

ما ان استقر بهما المقام في هذه المدينة حتى بادرت هيلين بتسطير رسالة إلى حبيبها ولكنها وجدت عناء شديداً في العثور على من يحملها

اليه مغامراً بدخول غابة فاكجيولا ...

وعاد الرسول بعد ثلاثة ايام دون ان يوفق الى العثور على القائد الشاب ولقد اضطر الى النجاة بنفسه بعد ان أثار الشبهات الكثيرة ماسأل عن القائد واستقصى اخباره .

وفكرت هيلين : لم يعد ثمة شك ... لقد قضى حول المسكين نحبه .. وانا التي قتلته ! قتلته بضعفي المخزي وتخاذلي المشين ، كان ينبغي له ان يحب امرأة قوية ، ابنـة أحد قواد الأمير كولونا مثلاً . . .

واشتد الحزن بهيلين حتى خيل لوصيفتها أنها سوف تقضي غماً ، فمضت إلى دير الكبوشيين وتحدثت مطولا الى احد الكهنة مبينه له ان الآنسة هيلين دي كامبيريالى تود الالتحاق بجول برانسيفورت ، زوجا ، وانها قـد نذرت من أجل تحقيق هذه الغاية ، مصباحاً فضياً للدير قيمته مائة قطعة فضية ! .

واجاب الـكاهن مرناعاً : مائة قطعة فضية ! وماذا يصير اليـه امرنا ان نحن تعرضنا لغضب السيـد دي كامبيريالي ؟ انه لم يعطنـا مئة قطعة بل الفاً لقاء قيامنا باحضار جثة ابنه القتيل من ساحـة الموقعة فضلا عن قيمة الشموع .

ولا بد لنا من القول ، انصافاً لهذا الدير ، ان اثنين من رهبانه تطوعا للذهاب الى البانو بغية اقناع هيلين او اجبارها على الاقامه في قصر عائلتها : كانا يعرفان ان السيدة دي كامبيريالي سوف تجزل

لها العطاء ان هما وفقا في مسعاهما بعد ان شاع في كل البانو خبر فرار هيلين من دير كاسترو وخبر الجوائز السنيـة التي وعدت بها الأم كل من يأتيها بانباء عنها ...

وتأثر الكاهنان الشيخان بالغ التأثر بما رأياه من يأس هيلين التي كانت شبه واثقة من موت جول برانسيفورت .. فاستبعدا فكرة افشاء سر مخبأ العاشقة المفجوعة بل وافقـا على مرافقتها الى قلعـة بيتريللا لمقابلة الأمير كولونا .

وخرجت هيلين وماريتا تحت جنح الظلام ، وكانتا ماتزالان في زي العاملان ، وقصدتا ينبوعاً على مرحلة عن ألبانو ، في غابـــة فاكجيولا حيث كان الراهبان قد أحضرا بغالاً وتأهبا للرحلة . . وما بزغ الفجر حتى اتخذ الجميع طريقهم الى بيتريللا ..

واستقبل الجنود الراهبين وصحبهما بـكل احترام علماً منهم ان الرهبان جميعاً مشمولون بحماية الامير ..

كان الامير ، لسوء حظ هيلين ، متغيباً ، فاضطرت الى انتظاره ثلاثة ايام طويلة كالأبد ..

وكانت خيبة الفتاة المسكينة بالغة عندما تمكنت اخيراً من مقابلة الامير ..

لقد خاطبها بقسوة وعنف :

ـ لماذا جئت إلى هنا ايتها الآنسه ؟ مامعنى هذا العمل الاحمق الذي اقدمت عليه ؟ إن ثرثرتك النسوية قد ادت الى مصرع سبعة

رجال من اشجع ما انجبت ايطاليا .. وان اي رجل عاقل لايستطيع غفران ذنبك العظيم ! ينبغي المرء ، في هذه الحياة ، أن يعرف مايريد ومالايريد .. ولك ان تعلمي ان آثار ثرثرتك لم تقف عند هذا الحد . . بل انها سوف تسبب كل ماسينزل بجول برانسيفورت من تنكيل .. والك كذلك ان تعلمي اني قد اعلنته زنديقاً وحكمت عليه بالكي بالحديد المحمي مدة ساعتين ثم احراقه حياً كأنه اليهودي الزنيم هو من عرفته من خيرة رجالي واكثرهم شجاعة واعظمهم نبلا وشهامة .. فلولا ثرثرتك المشؤومة لما عرف الناس ، قاصيهم قبل دانيهم ، ان الذي كان على رأس العصابة المهاجمة هو جول برانسيفورت .. هاهم كل رجالي يؤكدون الك ان جول برانسيفورت كان موجداً بينهم ليلة الهجوم على ديركاسترو وقد ظل لايفارقهم حتي مساء اليوم الثاني عندما ارسلته في مهمة الى فالايتري ..

وهتفت هيلين للمرة العاشرة وهي غارقة في دموعها :

ـ ولكن .. أهو حي ؟

وعاد الامير يقول :

ـ انه ميت بالنسبه لك . لن تقع منك عليه عين ابد الدهر . انصحك بان تعودي الى ديرك في كاسترو . حاولي بعد الآن ان تقللي من ثرثرتك كما آمرك بمغادرة بيتريللا في غضون ساعة واحدة وحذار أن تذكري لاحد شيئاً عن مقابلتك لي وان أنت فعلت عرفت كيف انزل بك العقاب الرادع ...

لقد مزقت هذه المقابلة فؤاد هيلين شر ممزق وسحقت نفسها سحقاً فظيعاً وكان جول قد حدثها كثيراً عن هذا الأمير الشهير كولونا الذي حمل له حبيبها احتراماً عظيما فبدأت هي تحبه لأن جول كان يكن له حباً جماً ..

• • •

كانت هيلين واثقة ، رغم كل ماقاله الامير ، من ان كل ما اتت به كان عن نية حسنة واندفاع عاطفي .. ولو أنها جاءت الى بيتريللا قبل ثلاثة ايام اذاً لوجدت جول برانسيفورت مقيماً فيها ، عاجزاً عن المسير من جراء الجرح الذي اصابه في ركبته .. ثم ان كولونا أمر به فنقل الى قريـة افيزانو من مملكة نابل .

لقد ادرك الامير بثاقب بصره انه لن يستطيع حمـايـة جول برانسيفورت اذا ماتقدم السيد دي كامبيريالي يشكوه كزندبق قد اقدم على استباحة حرمة دير كاسترو بغية اختطاف ابنته ، نزيلة هذا الدير .. لن يستطيع حمايته ولو بذل في هذا السبيل دماء ثلاثة ارباع رجاله !

ان جريمة جول لتعتبر خطيئة فظيعـة في حق المادونا التي يتبارى حتى قطاع الطرق في مرضاتها ويتنافسون على التظاهر بتقديسها واكرامها ..

ولو ان السلطات في روما وفقت إلى العثور على رجل من رجال الأمن يملك جرأة كافية للقدوم الى غابة فاكجيولا واعتقال

جول برانسيفورت ، ما ترددت .

واطلق على جول ، لدي وصوله الى افيزانو ، اسم فانتاتا وقد نقل الى هـذه المدينة من قبل رجال متنكرين . . وما عاد هؤلاء الرجال الى بيتريللا حتى اعلنوا ، بحرقـــة ولوعة ، ان جول برانسيفورت قضى نحبه في الطريق متأثراً بجراحه . وقد علم جنود الامير ان مجرد ذكر اسم جول برانسيفورت يكلف طعنة خنجر في قلب من يتجرأ على التلفظ بهذا الاسم المشؤوم ! .

ما عادت هيلين الى ألبانو حتى راحت تبعث بالرسالة تلو الرسالة. ولكن عبثاً فعلت رغم انها انفقت في هذا السبيل آخر قطعـة ذهبيه كانت تملكها ..

وأخيراً أخطر الراهبان صديقا هيلين ـ وكانا قد سقطا اسيري جمالها الخلاب ـ اخطرها هذان الراهبان ان من العبث كل هـذا العناء المبذول فمن المستحيل ابلاغ كلمة الى جول : فقد اعلن الامير كولونا موته ومن المؤكد أن جول لن يعود الى الظهور بين الاحياء قبل ان يشاء الامير له ذلك ..

وجاءتها وصيفتها ذات يوم باكية واعلمت لها ان امها قد توصلت اخيراً الى اكتشاف مقرها السري وانها قد اوعزت إلى رجالهـا بنقلها عنوة إلى قصرهم في البانو . فادركت هيلين انها ، ما ان تصبح بين جدران هذا القصر ، حتى يستحيل عليها الاتصال بالعالم الخارجي ورأت انها ستكون ان هي عادت الى دير كاسترو ، أكثر حريه

فسوف تجد ثمة كل التسهيلات التي تجدها الراهبات والنزيلات الاخريات في ارسال الرسائل وتلقيها .. هذا فضلاً عن ان لها في هذا الدير الذكريات الغوالي التي قد تخفف من آلام مصابها .. ففي حديقة دير كاسترو أهرق جول دماءه الذكية في سبيلها .. وهذا ماجعلها تحزم امرها على العودة إلى هذا الدير حيث تستطيع ان ترى المقعد الخشبي الذي استلقى فوقه جول ، في غرفة الراهبة حارسة الباب ، ليفحص جرح ركبته النازف دماً ..

وهكذا عادت هيلين الى دير كاسترو ، هذا السجن الحبيب ، حزينة ، كسيرة الفؤاد .

. . .

والآن .. يمكننا القول ان نقطة التحول ، في حياة هذه الفتاة قد بدأت منذ هذه اللحظة ..

لقد عانت من الحب بلاء عظيما .. اقد بلغت الاوج من التضحية والانسياق مع عواطف شريفه طاهرة .. واقد آن لها ، بعد هذه الصدمات المتتابعة ، ان تبدأ بالتدهور النفسي والعاطفي . . وسوف نشهد ، في الآتي من صفحات هذه الرواية التاريخية ، كيف ينقلب الملاك الطهور في بردي هذه العاشقة ، شيطاناً رجيماً بعد أن تحالفت عليها الاقدار وتآلفت ضدها تقاليد مجتمع قلس لايرحم ..

لقد احدقت بحياة هيلين ، تلك الحياة البريئة النقية ، كل ضروب

الخداع واللؤم والنفاق .. هذه الآفات المريعة التي تواكب كل مجتمع متحضّر وتفتك به فتكاً ذريعاً فتسوق أهله إلى اتباع هـــذه الاساليب الملتوية والطرق المعوجة .

لقد اثلج صدر السيد دي كامبيريالي ، قبل موته ، ماسمعه عن نشر الحكم القاضي بكي جول برانسيفورت بالحديد المحمي ثم بالاحراق حياً ثم بالقاء رماد جثته في نهر التيبر . ولقد بلغ سرور السيد دي كامبيريالي بهذا النبأ ان وهب لناقله أجود قطعة أرض من املاكه وبعد ذلك استقبل منيته قرير العين واثقاً من ان قاتل ابنـه سوف يلقى عذاباً عظيماً تتلوه منية شنيعة .

• • •

كان يعيش في بلاط البابا ، عهد ذاك ، كاهن داهية لايستعصي عليه أمر ولا تصده عن هدفه عقبة حتى ليقال أن هذا الـكاهن الذكي جدير باقناع الاب الاقدس بكل مايريد . وكانت صلات هذا الـكاهن البارع حسنة جداً مع الامير كولونا الذي يحمل له احتراماً عميقاً وتقديراً بعيد المدى ..

وهدى السيدة دي كامبيريالي تفكيرها إلى ضرورة الاستعانة بهذا الـكاهن الداهية لأنه الوحيد الذي يضمن لها النجاح في تنفيـــذ خططها مهما كانت غايتها وعرة المسالك صعبة المنال ..

واستدعت السيدة الـكاهن فور عودتها من كاسترو وخاطبته قائلة .

- سوف اجزل لحضرتكم العطاء إذا شئتم ان تمدوا لي يد المساعدة في قضية تافهة في حد ذاتها اشرحها لكم الآن . تعلمون حضرتكم ان الحكم قد صـــدر بحق القائد جول برانسيفورت هجاء صارماً رادعاً .. كما لاتجهلون ان هذا الحكم ، ما ان ينشر على الملأ ، حتى يصبح قابلا للتنفيذ في كل ارض ايطاليا ومملكة نابل منها . . اني اعرض على حضرتكم خمسين الف قطعة ذهبية ان أنتم توسطتم بغية تسهيل نزوح هذا القائد والتحاقه بخدمة ملك اسبانيا الذي هو بحاجة ماسة الى مثل هـذا الفتى المقدام في حربه مع الثائرين من اهل الفلاندر ... ان في القضية بعض الشكليات كأن تقنعوا نائب جلالة ملك نابل باعطاء برانسيفورت هذا براءة رتبة « رئيس » باسم البارون ليزارا . . وما هذا الا احتياط فيما اذا كان الحكم قابلاً للتنفيذ في اسبانيا فلا يلحق به ضرر . اما هذا الاسم فمأخوذ من املاك لي سوف اهبها له لهـذه الغاية . اعتقـد ان حضرتكم لم تروا قط اماً تعامل قاتل ولدها مثل هذه المعاملة ..

صحيح انه كان باستطاعتنا ، ببذل خمسمائة قطعة ذهبية فحسب ، ان نتخلص من هذا الشخص البغيض الا اننا فضلنا عدم الاصطدام بالامير كولونا . وهكذا تلاحظون ان الخطة التي شرحتها لحضرتكم سوف تكلفني مبلغاً يتراوح بين ستين وثمانين الف قطعة ذهبية وكل مبتغاي الا اسمع بعد الآن ذكر اسم برانسيفورت المشؤوم ..

ووعدها الكاهن المحترم خيراً واكد لها انه سوف يتصل بها

في غضون ثلاثة أيام ، لينقل اليها نبأ تحقيق المرام ..

وانتزعت السيدة دي كامبيريالي من اصبعها خاتماً ثميناً قيمته الف قطعة ذهبية وقدمته للكاهن الداهية دفعة على الحساب !

لم تكن مهمة الكاهن سهلة كما خيل اليه لأول وهلة .. فلقد وجد اقصى العناء في اقناع جول بالنزوح عن البلاد فلم يستجب له الشاب المغامر رغم مالمس من اخطار ماحقة تحدق به من كل جانب ولم يجد الكاهن مناصاً من الاستنجاد بالامير كولونا الذي رأى في هذه الخطة مخرجا من المأزق الحرج الذي زجه فيه تهور قائده الشاب العاشق ..

وتعاون الرجلان الخبيثان على اقناع جول ولكنه صمد لهما واصر على عناده .. واكد له الامير انه يستطيع ، في غضون ثلاث سنوات العودة الى بلاده ..

وضيقا الخناق على الفتى المسكين فهاجته الاشجان فبكي .. غير انه لم يستسلم . . ولم يجد الامير بداً من الضرب على وتر آخر فطلب الى القائد تلبية رغبته هذه واعتبارها خدمة شخصية له وهنا لم يستطع جول الاستمرار في عناده حيال الحاح سيده وصديق ابيه وذي الايادي البيض عليه ... غير انه اشترط ، قبل كل شيء ، الاتصال بهيلين واطلاعها على ملابسات القضية . . ولكن ، لما كان هذا مستحيلا ، فقد قطع له الامير وعدا بابلاغ رسائله اليها وعليه ان يحاول في هذه الرسائل اقناعها بصواب الفكرة حرصاً على حياته ومستقبلها

واتفقا على أن يرسل جول رسالة كل شهر من الفـــلاندر إلى حبيبته فيتولى الامير تأمين وصولها اليها .

واخيراً ابحر العاشق اليائس الى برشلونة .. وما استقر به المقام حتى شرع بتحبير الرسائل التي بلغت الامير فكان نصيبها الحرق بيد الامير نفسه لأن هذا الأمير لم يكن يريد ان يعود جول ابداً إلى ايطاليا خشية إثارة متاعب جديدة قد تؤدي إلى مالا تحمد عقباه .

اما هيلين فقد اقامت في دير كاسترو محزونة ، منسحقـة الفؤاد رغم انها احيطت بكل عناية ورعاية كأنها اميرة خطيرة .. وكانت قد اصبحت ، بعد وفاة والدها ، ذات غنى طائل وثراء عريض .. وقد عمدت إلى التباهي بهذه الثروة وهذا الغنى فوزعت ، غـــداة موت ابيها ، خمسة امتار من الجوخ الاسود على كل واحـــدة من ساكنات دير كاسترو وضواحيه ممن اعربن عن رغبتهن في ارتداء ثياب الحداد على الفقيد الغالي ...

كانت هيلين ماتزال في اوائل ايام حدادها عندما ناولتها يد مجهولة اول رسالة انتهت اليها من جول ...

عبثاً نحاول وصف اللهفة الحارة التي فضت بها انامل هيلين هذه الرسالة ، ثم اليأس العميق الذي خلفتـه قراءتها في نفس العاشقـة الولهى ..

وتفرست في الخط ملياً .. انه خط حبيبها دون اي ريب ... ولكنه كان خطاً لاحياة فيه .. صحيح ان الرسالة تتحدث عن

الحب .. ولكن .. أي حب هو هذا ! . انه جامد ، بارد ، لاحياة فيه ولا عاطفة .

الواقع ان السيدة دي كامبيريالي هي التي أملت هـــذه الرسالة والرسائل التي ستتلوهـا على مزور شهير نجح في تقليـد خط جول تقليداً تاماً كاملا .. وكانت خطة الأم ان تبدأ هذا السيل من الرسائل بسبع او ثمان مفعمة بالشوق والحنين ثم تاتي اخريات يشحب فيها الحب وينصل لونه الى ان ينتهي به الامر إلى الانطفاء والخمود .

. . .

عشر سنوات تصرمت وهيلين قابعـة في اعمـاق دير كاسترو ، منطوية على نفسها ، تبكي املها الفقيد وحبها الذاهب ، وحبيبهـــا الميت الحي ...

كثيرة هي المحاولات التي تعرضت لهـــا هيلين ، خلال هذه السنوات الطويلة ، بغية اقناعها بالزواج من عديد من شبان روما ذوى الجاه والوسامة والمال .. ولكن عبثـاً .. فالفتاة صامـدة في وجه كل المغريات صمود الطود الراسخ ، متشبثة بعناد حرون بوحيه اليها وفاء نادر واخلاص قلّ له مثيل ..

كانت هيلين مدركة حق الادراك انه ينبغي لها ان تتزوج، على الاقل ، كي تترك بعدها وريثاً لثروتها الطائلة فلا تذهب بدداً .. ولكن هذا الادراك كان يصطدم ابداً بعاطفتها النابضة بحب لم يفتر

ولم يعتوره برود ..

ولكن هيلين ترددت مرة واحـدة .. وتأرجحت بين الرفض والقبول .. وكان ذلك يوم تقدم اوكتاف كولونا ، ابن الامير فابريس البكر ، يطلب يدها ...

قالت في نفسهـــا : اذا كان لابد لي من الزواج فخير لي ان اتزوج من ابن الشخص الذي خصه جول بحبه واصفاه احترامه ..

ولكن هيلين عادت فانساقت مع عواطفها ورفضت الزواج من ابن الامير ...

امّا فابريس كولونا فكانت السن قد تقدمت به ولعله الشخص الوحيد الذي كان على اطلاع تام بكل ماحدث مع جول بعد نزوحه عن الوطن والذي ابلى ، في اسبانيا والفلاندر ، بلاء رائعاً وجـد فيه سبيلاً الى تناسي حبه المؤود وامله الشهيد :

اجل لقد عرف جول المجـد في شتي صوره واشكاله ، وانقادت اليـــه الثروة والجاه والرتب العالية .. فهو الآن الكولونيل ليزارا القائد العبقري الذي لايشق له غبار ..

كان يعتقد ان هيلين قد تزوجت منذ امد طويل لما عرفه فيها من ضعف وتخاذل امام رغبات اهلها وخاصة امها التي تحبهـا حباً جماً .. وجاءته اخبار تؤيد ظنونه ومصدرهـا السيدة دي كامبيريالي التي عمدت الى انفاذ كاذب الاخبار اليه كتتمم لخطتها الجهنمية التي رأيناها تحبكها فتجيد هذا الحبك ..

كانت هيلين قد غفرت ، نصف غفران ، لهذه الام الداهية ..

واشتدت رغبة السيدة دي كامبيريالي في عقد قران ابنتها رغبة منها في انتشالها من سهومها الدائم وبحرانها الطويل ..

ووجدت ان لا امل لها في تحقيق رغبتها ان لم تقطع هيلين كل امل من عودة جول الى الوطن ..

وجاءت ذات يوم ترجو صديقها الكردينال الشيخ سانتي كاترو ، الذي كان مازال مشرفاً على دير كاسترو رغم تقدمه بالسن - جاءت ترجوه ان يتأخر عن زيارة الدير مرة ثم ينبيء الراهبات انه اضطر الى التأخر بسبب شهوده حفلة قداس عن روح احد الاشقياء المدعو جول برانسيفورت ، والذي قضى صريعاً ، في بلاد المكسيك ، بايدي الهنود الحمر الثائرين . ثم يذكر لهم ان تأثر قداسة البابا لمصرعه كان عظيما فشاء ، تخفيفاً لعذاب نفسه ، ان يلغي الحكم الذي كان قد اصدره سابقاً بحق هذا الفتى والذي وصمه فيه بالزندقة والكفر ...

وتم ما ارادت ام هيلين .. وكان لهذا النبأ وقع الصاعقة على راهبات الدير ولم يلبث ان انتشر بينهن انتشار النار في الهشيم وانتهى به الامر الى مسمع هيلين فروعها ترويعاً وخلف لها يأساً مريراً لا يوصف ولا يحد ...

كان لهذه الكوارث العاطفية التي نزلت بفتاتنا المسكينة اثر سيء جداً فبعد ان كانت وديعة كالحمل ، رقيقة كأهاب الورد ، لطيفة

كنسائم الصباح ، انقلبت قاسية ، شرسة ، سوداوية المزاج ،خبيثة الطوية ،متعالية ، متكبرة ، معتدة بمالها ، متغطرسة على اقرانها ..

ثم انها سجنت نفسها في حجرتها لاتغادرها مطلقاً ... ولقـــد بلغ من هوسها وتدهور حالتها النفسية ان شاءت الاقامة في الحجرة التي لجأ اليها حبيبها ليلة المعركة ، اي في حجرة الراهبه البوابة ، وكي يتم لها تحقيق مأربها الارعن هذا عمـدت الى اجراء تعديل رئيسي في مبنى الدير فشادت جناحاً كاملاً بلغ اتساعه نصف مساحة الدير كله وكلفها اموالاً لاتعد ولا تحصى ...

ولم يقف هوسها عند هـــذا الحد فقد رغبت في الحاق الرجال الثلاثة الباقين على قيد الحياة من جنود جول ، بخدمتهـا ... وبذلت في سبيل ذلك مجهوداً عظيماً وتعرضت لاثارة فضيحة مدوية .. ولكنها ظفرت اخيراً بمبتغاها بما اتصفت به من عناد واصرار وبذل وسخاء ...

ومن بين هؤلاء الرجال كان ايفون الذي شاخ وخططت جسمه الندوب والجراح ..

لقـد اثار وجود هؤلاء الرجال بالقرب من هيلين الكثير من التقولات الا ان سلوكهـــا الناصع الذيل ، وحياتها البعيدة عن الشوائب ، وتمسكها العنيد بكرامتها وشرفها ، كل هذه الاسباب اخرست ألسنة السوء والقمت الاشداق المتخرصة حجراً ...

ولاحظت الراهبات ان مهمة هؤلاء الرجال الرئيسية كانت الاجابة

على اسئلة تلقيها عليهم هيلين دون كلل او ملل وكلها تدور حول موضوع واحد لايتغير .. عن ذكريات جول ...

عاشت هيلين ستة اشهر في دنيا خلقتها لنفسها بعيداً عن صخب الحياة خارج حجرتها .. فهي لاتختلط بالراهبات ولا تكترث بالناس ولا تأبه لما يقال او مالا يقال عنها ...

وجاءت حادثة ايقظت احساسات هيلين واثارت فيها كبرياءها وغطرستها وحقدها على الناس ..

كانت رئيسة الدير قد لاقت وجه ربها منذ امد قصير .. وتبعاً للعرف المرعي هيأ الكردينال سانتي كاترو ، قائمة تضم اسماء ثلاث من الراهبات ليقدمها الى قداسة البابا كي يختار من بينهن الرئيسة العتيدة ..

وذات يوم كانت هيلين واقفة الى نافذتها المطلة على الممر القديم الذي دارت فيه رحى المعركة .. وكانت عينا الفتاة التعيسة معلقتين بالأرض التي روتها دماء حبيبها وقد استغرقتها ذكريات ما امرها وما احلاها ...

ومرّت امام النافذة الراهبات الثلاث المرشحات لرئاسة الدير .. فلم تنتبه هيلين لمرورهن ولم تحييهن .. فساءت احداهن هذه البادرة فخاطبت رفيقتيها قائلة بصوت مرتفع قرع اذني هيلين :

ـ يالهذه النزيلة من متكبرة متغطرسة .. انها لاتفعل سوى الجلوس الى هذه النافذة المطلة على جماهير الشعب ...

ورفعت هيلين رأسها كالمسوعة فالتقت عيناها بست اعين تنضح خبثاً وتشفياً ...

وقالت وهي تهم بصفق مصراعي النافذة :

ـ حسناً . لقد مضت مدة طويلة وانا ارتدي جلد الحمل في هذا الدير ،، لابد للمرء من ان يكون ذئباً كي لاتتجرأ عليه الذئاب ..

وبعد ساعة من هذه الحادثة كان رسول خاص يحمل الرسالة التالية الى السيدة دي كامبيريالي المقيمة منذ عشر سنوات في روما وكانت قد كونت لنفسها في العاصمة مقاماً مرموقاً وظفرت بنفوذ بعيد المدى:

« امي الجزيلة الاحترام ،

انك تقدمين لي ، كل سنة ، بمناسبة عيد ميلادي ، ثلاثماية الف فرنك واراني دائبة على انفاق هذه المبالغ الطائلة في حماقات وتفاهات اقوم بها بين جدران هذا الدير .. قد تكون اعمالي مشرفة ، ولكنها حماقات على كل حال ..

بالرغم من اني لم اعرب لك ، منذ زمن بعيد ، عن شكري وامتناني لكل ما قمت به حيالي من اعمال كريمة ، فانه ليسرني ان انتهز هذه المناسبة لانوه لك بهذا الشكر والامتنان ..

لقد حزمت امري على الا ازوج حياتي كلها ولكني ارحب بأن اصبح رئيسة لهذا الدير ! . قد يبدو لك طلبي هذا غريباً .. لك ان تعلمي ان ماجعل هذه الفكرة تخطر في خلدي هو ان الراهبات الثلاث اللواتي رشحهن صديقنا الكردينال سنتي كاترو

هن عدواتي اللدودات . لقد قدم الكاردينال اسماءهن للأب الاقدس كي يختار واحدة منهن .

واليك خطتي : نسعى اول الامر لتأخير تسمية الرئيسة مدة ستة اشهر وفي غضون هذه المدة نقوم بالخطوات التالية التي تكفل لنا تحقيق هدفنا اذا ماتصرفنا بحكمة وسداد رأي ...

ان تحقيق هذا الهدف خليق بجعلي مجنونة سعادة .. ولاحظي انك قلما تستطيعين استعمال كلمة السعادة اذ تتحدثين عن ابنتك !..

انا على اقتناع تام بان فكرتي جنونية .. ولكني واثقة كل الثقة من انك جديرة بتحقيق هذه الرغبة التي قد تكون آخر ماطلب اليك تحقيقه ..

اذا كنت ترين ان ثمة بعض الامل في تحقيق رغبتي فسأرتدي ثوب الراهبات خلال ثلاثة ايام وانت تعلمين ان اقامتي مدة ثمانية اعوام في الدير تعطيني الحق في ذلك دون اي عائق شكلي ..

رجائي اليك ياوالدتي الحبيبة الا تدخري وسعاً ولا تضني بجهد ولا توفري مالاً في سبيل تحقيق هذه الغاية التي تغمر حياة ابنتك بسعادة قلما حلمت بها من قبل ..

واني ابدأ ابنتك المطيعة ايتها الام الجزيلة الاحترام ...

هيلين دي كامبيريالي

لقد افعمت هذه الرسالة قلب السيدة دي كامبيريالي حبوراً . ولقد غزت الندامة قلبها لأنها اشاعت خبر موت جول برانسيفورت

هـذا وان الشيء الذي تطلب ابنتها تحقيقه ليبدو اصعب مافي الوجود بل ابعد مايكون عن المعقول . فهي الفتاة التي لم تنخرط بعد في سلك الراهبات والتي قد سبق وتعلقت بشقي ، فهل يمكن لمثل هذه الفتاة ان تسمى رئيسة لدير كبير له مكانتـه يضم فتيات من اكبر الاسر الايطالية ؟ ..

وفكرت السيدة دي كامبيريالي : يقولون ان كل قضية قابلة للاثارة وهي لاتخلو من وجهة نظر ، وبالتالي يمكن ان تكسب ..

وفي جواب السيدة فيكتوار لابنتها اعطتها بعض الامل في تحقيق رغبتها الغريبة .

وامضت والدة هيلين ليلتها بطولها تقلب الرأي حول اسلم السبل لبلوغ غايتها وتحقيق رغبة فتاتها المحبوبة .. ورأت أخيراً ان تستعين بصديقها القديم الكاردينال سانتي - كاترو ..

وفي الساعة السابعة من صبيحة الغد كانت تقرع باب الكردينال الشيخ .

قالت تخاطبه : اننا قداصبحنا ، ياصاحب النيافة ،لقداصبحناشيخين نحن الاثنين . عبثاً نخدع انفسنا باطلاق اسماء جميلة على اشياء غير جميلة . لقد جئت اعرض على نيافتكم فكرة خرقاء .. وكل ما استطيع أن أقول عنها أنها ليست مستهجنة ، وان كنت اعترف باني أجدها بعيدة عن المعقول كل البعد .

تعلمون ان السيد اوكتاف كولونا ، ابن الأمير فابريس ، قد

تقدم يطلب يد ابنتي هيلين وقد اعجبني الشاب وتمنيت ان يتم الزواج الا ان ابنتي رفضت وأصرت على الرفض .. ثم علمت انكم ترغبون في تزويجه من ابنة اخيكم .. أني اوافق على هذا الزواج واحبــــذه ونظراً لحبي لهذا الشاب فانا اتبرع بمنحه ، يوم زواجه ، مائتي الف قطعـة ذهبية كبائنة لابنة اخيـكم ذلك أني أعلم أن موضوع بائنتها يشغل تفكيركم ويشكل صعوبات كثيرة تعترض أمام الزواج ..

الا ترون أني أتخذ مع نيافتكم اسلوباً صريحاً جداً ؟ . حسناً واني لمستمرة في هذه الصراحة .. فكي تقوم ارملة مسكينـة مثلي بهذه التضحية لابد لها من مقابل .. وسيكون ذلك في تسمية ابنتي هيلين ، البالغة من العمر سبعة وعشرين عاماً ، رئيسة لدير كاسترو وانتم تعلمون ان هذه الفتاة مقيمة منذ عشر سنوات في هــــذا الدير لاتبرحه ..

اما السبيل إلى ذلك فتأخـير تسمية الرئيسـة الجديدة لهذا الدير ستة اشهر . وهذا شيء قانوني ..

وصرخ الكردينال الشيخ وقد خرج عن طوره :

ـ ماذا تقولين ياسيدتي ؟ ان صاحب القداسة نفسه لايستطيع تحقيق هذه الرغبة التي تبدينها لشيخ همّ مثلي ..

ـ ألم اقل لنيافتكم ان طلبي يتصف بالرعونة والبعد عن التعقل ؟ وازيد على ذلك فاقول ان اغبياء الناس يعتبرونه طلباً جنونيـاً . . اما المتعقلون المطلعون على دخائل الامور في البلاط البابوي فيعلمون

ان صاحب القداسة البابا غريغوار الثالث عشر يرغب رغبة اكيدة في مكافأة نيافتكم على خدماته الطويلة الجليلة وستكون هذه المكافأة في تسهيل أمر زواج ابنة أخيكم ، هذا الزواج الذي باتت كل روما تتمناه . هذا فضلا عن ان الطلب قانوني تماماً ، وان ابنتي لمستعدة لارتداء ثوب الراهبات منذ الغد ..

وصرخ الكاردينال الشيخ بصوت مجلجل :

ـ ولكن الأمر ينطوي على خطيئة المتاجرة بالاشياء الروحية ياسيدتي .

وهمت السيدة دي كامبيريالي بالانصراف ولكن رجل الدين استوقفها قائلاً :

ـ ماهذه الورقة التي تتركينها ؟ .

ـ انها قائمة بالاملاك التي اود اهداءها لابنة اخيكم اذا كانت لاترغب في المال . وبالامكان ترك خبر ابدال ملكية الارض سرياً مدة طويلة .

ـ ولكن الخطيئة ياسيدتي ! . الخطيئة ! .

ـ يجب ان تعملوا على تأخير انتخاب رئيسة الدير ستة اشهر ..غداً سأزوركم لأخذ النتيجة ..

وعلمت السيدة دي كامبيريالى ، في الغداة ، ان انتخاب الرئيسة قد تأخر ستة اشهر نتيجة وقوع خطأ في تسمية المرشحات لهذا المنصب الديني الخطير فقد اكتشف ان خال جد المرشحة الثانية كان

قد اعتنق البروتستنتية في « اوين » ..

وسعت السيدة دي كامبيريالي بعد ذلك إلى مقابلة الأمير فابريس كولونا واستطاعت الاتصال به بعد ثلاثة ايام ولكنها خرجت من هذه المقابلة مهمومة مبلبلة الفكر ذلك انها وجدت الامير ، الذي اعتاد ان يكون هادئاً ، شديد الانشغال باخبار الانتصارات الحربية للكولونيل ليزارا .. فرأت ان الوقت غير مناسب للبحث في الموضوع الذي جاءت من أجله ..

كان الامير يعتبر الكولونيل كولده بل كأحد تلامذته المفضلين .

ماذا سوف يحل بالخطط التي برعت السيدة دي كامبيريالي بحبكها خلال الأعوام العشرة المنصرمة إذا ما اتصلت بمسامع ابنتها اخبار انتصارات جول برانسيفورت الذي تعتبره في عداد الاموات ؟

• • •

مرت سنتان على هذه الاحداث مات خلالها الكردينال الشيخ سانتي كاترو حزناً على الخطيئة التي ارتكبها بتذليل المصاعب امام هيلين حتى اصبحت رئيسة لدير كاسترو !

وعين خلفاً للكاردينال الراحل اجمل رجل في البلاط البابوي ، المونسينيور فرنسيسكو سيتاديني ، احد نبلاء مدينة ميلانو .

وكان لهذا الشاب الوسيم ، الحسن الشارة ، صلات كثيرة مع الرئيسة بحكم وظيفته كمشرف عام على الدير .. فلم يلبث هذا الشاب

الذي لم يتجاوز التاسعة والعشرين . ان هام حباً برئيسة الدير الحسناء ...

وعمد الاسقف الى الاكثار من زياراته للدير وكان يردد على مسامع الرئيسة : انني الآمر الناهي في غير هذا الدير غير اني اعترف ، بكل خجل ، أنني اشعر بلذة في ان اخضع الك خضوع العبد الرق ، تفوق لذة الامر والنهي في مكان آخر . اني لاجد نفسي ، حيالك ، امام كأن اسمى مني ، ولو حاولت فلن اجد ارادة غير ارادتك واني لأفضل ان ابقى ابد الدهر عبداً لك على ان اكون ملكاً بعيداً عن عينيك الساحرتين ! »

وكثيراً ما كانت الرئيسة تأمره بالسكوت والاقلاع عن ازجاء كلامه المعسول وغزله المكشوف موجهة اليه الكلام بلهجة نابية ونبرة قاسية تدل على احتقار .. والواقع انها كانت تعامله كما تعامل خادماً فلا يفعل الاسقف المسكين اكثر من غض الطرف وكثيراً مايذرف الدمع بحرقه ولكنه لاينصرف ابداً .

كان يجد كل يوم مبررات جديدة لزيارة الدير حتى اثار شبهات الراهبات وخاصة منهن عدوات الرئيسة . غير ان نائبة الرئيسة كانت تدافع عنها دفاعاً حاراً ضد تقولات الراهبات الاخريات فكافأتها هيلين بان اطلقت يدها في ادارة الدير الداخلية اطلاقاً تاماً

كانت تقول : تعلمن ايتها الاخوات ان السيدة الرئيسة قد ورثت من عهد شبابها صفات قد تبدو غريبة في اعيننا . ولكن تصرفاتها

ظلت ابداً بعيـدة عن كل مايشين .. وها انتن ترين انها لاتدخر زجراً او تقريعاً لهذا الاسقف المسكين .. حتى اننا لنخجل من المعاملة القاسية التي تعامله بها ..

فتجيب الاخوات الحاقدات : هذا صحيح ولكنه يعود كل يوم الامر الذي يدل على انها ، في الواقع ، لاتسيء معاملته كما تتظاهر وعلى كل حال فهذه التصرفات البعيدة عن اللياقة تديء إلى حرمة الدير المقدسة اساءة عظمى ..

الواقع أن أقسى الاسياد لايمكن ان يوجه الى احقر خادم عنده اكثر مما كانت توجه الرئيسة إلى الأسقف التعس من اهانات مشينة غير انه كان مدلهاً حباً وقد حمل من موطنه فكرة : الغاية تبرر الوسيلة !

ان المرء ايحار حيال تصرفات تبـدر من بعض الاشخاص المصابين بعقدة نفسية والذين ينتهي بهم الامر الى الانهيار العصبي التام فلا يجدون عزاء الا في انتهاج سبل ملتوية يجدها كل شخص سليم النفس محطة مرذولة ..

ومن هـذا القبيل ماحدث في شهر تشرين الثاني من عام ١٥٧٢ فقد حضر الاسقف الولهان الى الدير في الساعة الحادية عشرة ليلاً فجـاءت الرئيسه وفتحت له بنفسها وسمحت له باتباعها . واستقبلته في احدى غرف جناحها الخاص وكان لهذه الغرفة باب سري يفضي إلى الحديقة ...

ومضت ساعة .. ووجد الأسقف نفسه يؤمر بمغادرة الدير فوراً شبه مطرود .

وتقدمته الرئيسة بنفسها حتى الباب وخاطبته قائلة :

– عد إلى قصرك حالاً . وداعاً ياسيدي ! انك تثير اشمئزازي ! يخيل إلي أني أسلمت نفسي لخادم حقير ! ..

واستمر الأسقف بعد هذا الموعد الاول يتردد على الدير مرة كل ثمانية ايام فتستقبله الرئيسة ، كما في المرة الاولى ، في حجرتها الخاصة ..

ولقد لاحظ الجميع أن وجهه بدأ يتسم بشيء من معاني الانتصار والحماقة ولم تنقطع الرئيسة عن معاملته بنفس الاحتقار المعهود بل انها استمرت في توجيه الاهانات اللاسعة اليه امام الراهبات أو نزيلات الدير ، اهانات ما كان احقر خدم الدير خليقاً باحتمالها ..

وبعد مرور ثلاثة اشهر على موعدهما الاول ، أشارت الرئيسة إلى الأسقف الجميل اشارة خفية فما تردد في المثول امام باب حجرتها عند انتصاف الليل .. لقد دعته كي تعلمه انها حامل !.

ماتلفظت هيلين بهذه الاقوال حتى تمشى الشحوب المميت في محيا الرجل فبدا كالمخبول جزعاً وخوفاً .

وكانت الرئيسة قد اصيبت بوعكة فاستقدمت طبيباً لم يكتم عنها حقيقة ما هي عليه . وكان هذا الطبيب يعلم ماتتحلى به الرئيسة من كرم فوعدها بمساعدتها وانتشالها من مأزقها الحرج .

وبدأ بان جاءهـا بامرأة من بنات الشعب ، شابة جميلة ، كانت تجيد عمل القابلة دون أن تكون لها هذه الصفة فهي زوجة خباز .

وسر هيلين مارأته في اخلاص هذه المرأة في انقاذها من هـذه الورطة اللعينة ولكن القابلة الدعية صرحت لها أنه لابد ، حرصاً على نجاح الانقاذ ، من مساعـــدة اثنتين من راهبات الدير يشترط بهما الاخلاص وكتمان كل شيء .

فاجابتها هيلين : أن أفضح نفسي أمامك فلا بأس . . اما أن افعل ذلك امام من هن من طبقتي فلا .. هيا اغربي عن وجهي .

وانسحبت المرأة .. ولكن هيلـــين لم تلبث ن أدركت خطل رأيها فليس من التعقل وضع نفسها تحت رحمة ثرثرة هذه المرأة .. فبادرت الى دعوة الطبيب الذي توسط فاعاد القابلة فاجزلت لها هيلين العطاء ..

واقسمت المرأة انها ، حتى ولو لم تطلب الرئيسة اعادتها ، ما كانت لتبوح بالسر .. غير انها عادت تصر على أنها ان تستطيع فعل شيء اذا لم تجد في الدير امرأتين تساعدانها في مهمتها الشاقة ..

وحزمت الرئيسة أمرها ، بعد تفكير طويل ، على أن تسر خبرها الهائل إلى السيدة فيكتوار ، نائبة الرئيسة ، والى السيدة بيرنارد وقد اخـــذت منها قسماً مغلظاً بألا تقدما على افشاء كلمة واحدة حتى ولو تعرضتا لافظع ضروب التعذيب . وقد تجمدت اطراف السيدتين رعباً وقد خيل اليها أن القضيـــة لابد انها تدور حول موضوع

جريمة شنيعة ..

قالت الرئيسة : لقد اهدرت كرامتي ، وخنت واجباتي .. وها انا حبلى !

وصرخت السيدة فيكتوار التي تحمل لهيلين حباً جماً وصداقة مخلصة دامت سنوات عديدة ، صرخت والدموع في عينيها :

من هو هذا الشقي الذي اقدم على هذه الجريمة !

ـ هذا مالم اقله في كرسي اعترافي فهل اقوله لكما ؟ .

واتخذت السيدتان فوراً كل الاحتياطات اللازمة لاخفاء الخبر المشؤوم عن بقية راهبات الدير ونزيلاته .

وكان اول ماقررتاه نقل سرير الرئيسة الى غرفة جانبية لاتكون عرضة لدخول الراهبات دائماً .. وفي هذه الحجرة ولدت رئيسة دير كاسترو ، هيلين دي كامبيريالي ، طفلا ذكراً ..

وحملت القابلة الطفل بكل احتراس ومضت به خارجة من الدير تحت جنح الظلام وسرعان ماغادرت المدينة يطاردها رعب هائل . .
وما بلغت البرية حتى لجأت إلى كهف وجدته امامها واختبأت فيه وكان الطبيب يقتفي آثارها فعرف المخبأ وعينه لهيلين فكتبت هذه الاخيرة إلى سيزار ديل بينه ، وصيف الأسقف والمؤتمن على اسراره بواقع الحال فاسرع الى الكهف واستلم الطفل من القابلة وحمله إلى فاتيفا سكون حيث نُصّر في كنيسة سانت مرغريت واطلق عليه اسم الكسندر . ثم أن سيزار هيأ له مرضعة اوكل امره اليها .

وحدث اثناء حفلة التنصير ان تجمع حول الكنيسة عدد غفير من النسوة اللواتي رحن يلححن في سؤال السيد سيزار عن اسم والد الطفل فاجابهن قائلا :

ـ انه سيد خطير من روما قد عبث بعفاف فلاحة مسكينة مثلكن ! .

فلم يلبثن ان تفرقن جميعهن ! .

٦

كل شيء كان يسير سيره الطبيعي حتى الآن ، في هـذا الدير الفسيح الذي تقيم فيه اكثر من ثلاثمائة امرأة ذات تطفل وحب استطلاع ..

ان احداً لم يسمع بشيء مما جرى في تلك الليلة العصيبة . وكانت الرئيسة قد وهبت الطبيب بضع قبضات من القطع الذهبيه المضروبة حديثاً في روما . واعطى الطبيب بدوره عدداً كبيراً من هذه القطع لزوجة الخباز وكانت هذه المرأة جميلة وزوجها كان غيوراً . وذات يوم عثر على القطع الذهبية البراقة بين امتعة زوجته فكان اول ما تبادر الى ذهنه ان زوجته تبيع جسدها لقاء هذا الذهب وعمد فوراً الى انتزاع الحقيقة من بين شفتيهـــا بعد ان وضع المدية على نحرها ولم تهدأ ثائرة الزوج الا حين اطلعته امرأته على الحقيقة كاملة . وشرع الزوجان يتناقشان في الطريقة التي يستغلان بها هذه الثروة . وكان رأي المرأة ان يسددا بهـــا ديونها ولكن الزوج استحسن شراء بغلة فتم له ذلك . واحدث ظهور البغلة فضيحة في الحي الذي يعرف ضيق ذات يد الزوجين .. وبدأ كل اهل الحي : الاصدقاء منهم والاعداء ، يسألونها عن اسم العشيق الكريم الذي ذلل

لها حتى شراء بغلة . ولقـــد اضطربت المرأة اضطراباً شديداً ، وحارت في امرها ، ولم ترَ مناصاً من أن تروي لهؤلاء المتطفلين الحقيقة كل الحقيقة .

وذات يوم قصد سيزار بينه رئيسة الدير ليقدم لها تقريره عن الطفل فمشت اليه وراحت تقرعه على عدم كتمان الامر كما كان ينبغي له ان يكتم .

امّا الاسقف فقد اصيب بمرض شديد نجم عن خوفه وذعره من افتضاح الحقيقة فكتب الى اشقائه في ميلانو يروي لهم التهمة الباطلة التي استهدفته . وسألهم الحضور ليكونوا الى قربه فيشدوا أزره . وبالرغم عنه عزم على مغادرة كاسترو ولكنه قبل ان يفعل كتب الى الرئيسة :

« تعلمين ان سرنا قد اصبح نهباً للجماهير فاذا كنت تريدين ليس انقاذ سمعتي فحسب ، بل حياتي ايضاً ، وتحاشياً لفضيحة أكبر ، اذا كنت تريدين ذلك، فما عليك الا اتهام جان باتيست دوليري الذى قضى نحبه منذ ايام قليلة ، بانه بطل الجريمة ...

صحيح انك ، بهذه الطريقة لن تنقذي شرفك ولكنك تنقذين شرفي انا على الاقل فلا يتعرض لأي ثلم .

وصرخت هيلين امام كل الموجودين في حضرتها بعد ان قرأت رسالة الاسقف الجبان :

« هـــذا مصير العذارى المجنونات اللواتي يفضلن جمال الجسم

على جمال الروح ! »

لم تعمّ التقولات التي كانت تتردد في كاسترو ان بلغت اسماع الكردينال الهائل فارنيز فاسرع يصدر اوامره باعتقال الاسقف سيتادبني . وتطلع هذا الاسقف المنكود حوله فوجد كل اتباعه قد فروا ونجوا بأنفسهم خشية عاقبة الامر . ولم يبقَ الى جانبه سوى سبزار بينه الذي اقسم ان يظل مخلصاً له فلا يبوح بكلمة مهما كان عظيماً العذاب الذي يتعرض له ..

وسجن الاسقف في قصره واحيط بحراسة قوية فكتب يستحث اشقاءه على الحضور لنجدته .

ومثلت هيلين امام المحققين فاعترفت بجريمتها بصراحة وقوة ولكنها نفت التهمة عن الاسقف والصقتها بجان باتيست دوايري محامي الدير .

وفي التاسع من ايلول سنة ١٥٧٣ اصدر البابا غريغوار الثالث عشر امره بضرورة التعجيل بالمحاكمة وانزال اقصى العقوبات بالمجرمين .

وانتدب قاض جنائي وهيئة عدلية لهذا الغرض . وجرت المحاكمة في جو رهيب من تعذيب الشهود ولكن معظمهم كان مخلصاً فلم يعترف بشيء رغم ما لاقوا من ضروب الجلد والكي بالنار .. وأخيراً جاء دور الراهبتين فيكتوار وبيرنارد وكانتا قد شهدتا عذاب بقية الشهود فلم تلبثا ان اعترفتا بكل ماعلمتاه عن القضية

واقد اجمع معظم الراهبات على القول انهن سمعن بان المجرم هو الاسقف وعلقت احداهن قائلة : ان اللهجـة التي كانت الرئيسة تخاطب بها الاسقف تدل على انهما كانا « يعملان الحب » منذ امد طويل ! »

واجابت احدى الراهبات ـ وقد تم استجوابهـــا امام آلة التعذيب ـ اجابت قائلة انها تعتقد بان بطل الجريمة هو الهر لأنها تري الرئيسة ابداً تحتضنه وتدلله ! ..

ومن اغرب الافادات ماذكر عن راهبة اخري حيث قالت :

ـ اعتقد ان بطل القصة هو الريح ! لأننا نرى الرئيسه مسرورة طلقة المحيا ، جذلى ، كلما هبت الريح ؟

امّا الاسقف فقد كان مريضاً او يتظاهر بالمرض لذلك فقد تأخر استجوابه وهذا ما اتاح لاشقائه فرصة الحضور والتماس مهلة من البابا الى ان يشفى من مرضه . فما كان من الكردينال فارنيز الا ان ضاعف عدد الحراس على قصره .

وجاءت السيدة دى كامبيريالي ذات يوم لمقابلة ابنتها وسألتها أثناء المقابلة قائلة :

ـ ماهو السبب الذي حدا بك إلى اتهام جان باتيست دواسيري بمشاركتك في الجريمة ؟

فاجابت هيلين بعصبية وقحة :

ـ فعلت ذلك رفقاً بجبن الأسقف الرعديد .. هذا واذا ماستطاع

انقاذ جلده فقد ينصرف الى العناية بالطفل فلا يبقى دون معيل ..

وسجنت هيلين في قبو من أقبية الدير تبلغ سماكة جدرانه ثمانية أقدام وكانت الراهبات لايذكرن هذا السجن الا برعب شديد .

لم يلبث الاسقف ان تماثل للشفاء فنقل إلى روما حيث جرت محاكمته وكانت هيلين قد نقلت هي الاخرى إلى دير سانت مارت وزج بها في احدى حجراته بينما كان الاسقف يمثل امام اعلى هيئة قضائية دينية فانكر كل شيء ببلاهة غريبة وبرود عجيب ولكنه لم ينكر انه كان يقضي الكثير من اوقاته لدى الرئيسة في مخدعها ..

واجرت المحكمة مقابلة بينه وبين الرئيسة فلم تزد هيلين شيئاً على ماروته ورغم ذلك عرضت للتعذيب ..

واخيراً صدر الحكم على الرئيسة بالسجن المؤبد وعين سجنها في دير سانت ـ مارت .

اما الاسقف فالبرغم من عدم اقراره بشيء ، حكم بالتجريد من رتبته الكهنوتية وابعاده عن ارض روما .

وسرعان مابدأت السيدة دي كامبيريالي حبك المؤامرات وتصميم الخطط لانقاذ ابنتها ...

ورأت ان خير وسيلة لذلك هي حفر سرداب يصل الحجرة التي سجنت فيها هيلين بالخارج . ولم تكن المهمة شاقه باعتبار انه كان ثمة سرداب قديم يعود إلى عهد ازدهار روما ولكنه كان مليئاً بالركام وجاءت السيدة دي كامبيريالي بعمال موثوقين دفعت لهم اجوراً خيالية

فكانوا يعملون ليلا على ازالة الاتربة والانقاض من داخل السرداب ..
غير ان العمل ما كان يمكن ان يتم في سرية كاملة لو لم تعمد أم هيلين الى البذل بسخاء لاغماض العيون التي تنبهت إلى عمليات الحفر الليلي ..

واقامت هيلين في سجنها على حالة سيئة جداً ولنا أن نتصور هذا الشقاء العظيم الذي وجدت نفسها عرضة له بعد ان هبطت من سامق إلى أدنى الحضيض ..

وحدث في هذه الفترة مالم يكن بالحسبان فقد لحظ فابريس كولونا ان حالة البابا الصحية آخذة بالتدهور فراح يرسم الخطط لتنصيب احد الكرادلة من اصدقائه في سدة القديس بطرس . ومن أجل هذه الغاية ارسل احد ضباطه لاستدعاء جول برانسيفورت الذي اصبح ذا شهرة عظيمة في الجيش الاسباني باسم الكولونيل ليزارا ..

كان جول يلتهب شوقاً لرؤية بلاده فاستجاب فوراً وابحر إلى بيسكارا ومنها اتخذ الطريق الجبلية حتى بيتريلا .

كان سرور الامير بعودة البطل عظيماً جداً ادهش كل الناس.

وقال لجول انه استدعاه ليكون خليفة له وليسلمه قيادة جيشه من بعده .

وكان الامير قبل حضور جول قد اصدر أوامره إلى جميع اتباعه محظراً عليهم ذكر شيء عن حادثة دير كاسترو وعن محاكمة هيلين .

وكانت الخطة الاولى هي احتلال ألبانو فمشى اليها جول على رأس

الف من جنوده فاحتلوها وهنالك التقى بصديقه القديم سكوتي الذي انفرد به وروى له كل شيء .. وطلب جول من الامير السماح له بمغادرة البانو غير انه لم يعثر الامير على اثر، ذلك ان فابريس علم، ليلا ، بموت البابا غريغوار الثالث عشر فمشى الامير إلى روما على رأس جنوده دون تأخير وقد تناسى ، في غمرة الفرح ، صديقه جول برانسيفورت فما كان من هذا الاخير إلا ان سار على اثر الامير ووجهته المدينة الخالدة ! ..

كانت السيدة دي كامبيريالي تنتظر بفارغ الصبر موت البابا علماً منها أن الفوضى تعم عند شغور العرش المقدس من سيده وهذه افضل مناسبة تستطيع انتهازها لاتمام النفق في وضح النهار وانقاذ ابنتها الحبيبة من سجنها الرهيب .

وتسرب خبر عودة جول برانسيفورت إلى هيلين بواسطة ايغون الذي كان مازال مخلصاً لسيدته وقد وجد صعوبة قصوى في ابلاغ السجينة الخبر فما كان منه الا ان لجأ إلى الرشوى فنقل الخبر اليها بعض خدم السجن وحراسه .

وهتفت هيلين عندما بلغها النبأ : آوه يا أماه ! لكم الحقت بي من اذى ! !

وأخيراً جاءت الوصيفة ماريتا تؤكد النبأ لهيلين فألقت هذه الاخيرة بنفسها في احضان الفتاة وهي تذرف الدمع السخين .

وقالت : آه ! ياعزيزتي .. أن أرى جول .. وأنا مجرمة .. هذا

مالا يمكن أن يكون ..

ولم يلبث النفق ان تم واتصل بسجن هيلين وظهرت السيدة دي كامبيريالي قادمة بطريق السرداب وكانت ثيابها ملطخة بالتراب وقالت :

ـ آه ياهيلين العزيزة .. لقد جئت انقذك !

ـ ومن قال لك اني راغبة في هذا الانقاذ ؟

وكانت دهشة السيدة دي كامبيريالي اعظم من أن توصف وراحت تحدق بابنتها بعينين زائغتين . :

ـ حسناً . ياهيلين العزيزة . ان الاقدار تحرجني فاجد نفسي مجبرة على الاعتراف لك بذنب ارتكبته قد يكون لي بعض العذر بما حل بعائلتنا من مصاب .. وعلى أي حال فانا استميحك معذرة وغفراناً .. جول برانسيفورت .. حي يرزق ..

ـ ولأنه حي فانا لا أريد الحياة !

لم تفهم الأم منطق ابنتها لأول وهلة وراحت ترجوها أحر الرجاء وتبتهل اليها اشد الابتهال غير أنها لم تنل منها اي جواب : كانت هيلين قد جثت أمام الصليب وغرقت في صلاة حارة ..

وشاءت الام ان تتابع تضرعها غير ان هيلين اسكتتها قائلة :

ـ هلا تركت لي الحرية ساعة على الأقل .. لقد سممت حياتي وها انت تريدين تسميم موتي ..

وعادت السيدة دي كامبيريالي على اعقابها خارجة من السرداب

وهي لاتنفك ترجو ابنتها ان تحزم أمرها وتخرج من سجنها قبل ان يكتشف الأمر .

وما خرجت الام حتى دعت هيلين بايرون وقالت له :

ـ كن على اهبة فسوف أكلفك بابلاغ رسالة إلى جول . أنظر إلى هذا الذهب الذي تركته امي هنا . ضمه كله في جيبك ماعدا خمسين قطعة دعها لي ..

وشرعت هيلين تكتب :

« ليس لك ان تشك في حبي العظيم ياجول العزيز كما لا أشك في حبك ... واذا كنت أراني قد ازمعت سفرا طويلا لارجعة لي منـــــه فما ذلك الا لما اصابني من صروف الدهر الغاشم ونوازل الايام القاسية التي لم ترحم شبابي ولم تشفق على قلبي ..

كل ذلك كان يهون لو اني لم اقدم ، في ساعة ضعف وتخـاذل ، على ارتـكاب خطيئـــة كبرى ، دنست طهارتي وأطاحت بعفافي ، فغدوت بها غير أهل لحبك ولا مستحقة اخلاصك ..

اجل ايها الحبيب .. كان بامكاني ان التقي والسعادة بين ذراعيك بعد كل الذي تكبدته من شقاء مرير ويأس قاتل وآلام جسام .

لايذهبن بك الظن إلى ان فؤادي قد خفق لحظة واحدة بحب غير حبك .. لا لعمرك ياجول ، ياحبيب صباي وأليف شبابي ..

لـكم كان صدري يضج بالاحتقار لذلك الرجل البغيض الذي كنت استقبله في مخدعي وانساب بين ذراعيه !..

قد لاتصدق قولي هذا ولك العذر .. ولكن الاموات لايكذبون وعندما تقرأ اسطري هذه اكون قـــد مضيت في رحلتي الطويلة التي ذكرت ..

اما الدافع بي إلى فعلتي الشنعاء فدافعان : الضجر الذي سمم حياتي والسأم من هـذه الحياة بالذات .. ثم تلك الفكرة الفوضوية التي نبتت في تضاعيف دماغ لم تبق فيه الكوارث قدرة على المحاكمـــة والتفكير الصائب ..

شئت الانتقام من كل الناس فبدأت بنفسي .. واي انتقام تنزله عذراء بنفسها اشد هولاً من تسليم جسدها البكر الطهور إلى رجل ترى فيه السماجة وثقل الظل وتحمل له كراهية شديدة ومقتاً عظيما؟

لقد بدأت حالتي العصبية بالانهيار والتردي منذ اللحظة التي استقبلني فيها الامير كولونا استقباله الشرس القاسي ، هـذا الاستقبال الذي اطاح بأملي وبدده في مهب كل ريح ..

كنت احب هذا الامير لأني سمعتك تشيد به وتمجد افعاله . . ولكم كانت خيبة املي عظيمة عندما رأيت غلظـــة كبده وتنكره لابسط المباديء الانسانية حيال فتاة لاحول لها ولا قوة :

ثم حوصرت بالكذب والنفاق والدناءة من كل جانب . . بل ان كل ما كنت اسمع كان مراوغة وخداعاً وتمويها .. وكنت اعرف ذلك.

استلمت ثلاثين رسالة منك اول أمري .. لك أن تتخيل الشوق الذي كنت افض به تلك الرسائل .. وما أن تقع عيناى على اسطرها

الاولى حتى يوشك فؤادي ان يقفز من بين حناياي او يتجمد فتخفت كل نبضة فيه ..

وكانت الخدعة الاولى ...

لقد بدأ ايماني بحبك يتزعزع ..،

ثم جاءني نبـأ مصرعك فاجهز على باقيات أملي وبدد ذكريات الشباب الشيقات العذاب .

ونبتت في صدري رغبة جامحة في الذهاب الى المكسيك ، حيث زعموك قتلت ، علني احظى بالمثول امام رمسك الغالي فأذرف دمعة واحدة تطفيء ما اعتلج في اعماق قلبي من نار اكولة كجهنم ... ولو فعلت لعثرت عليك ولكنا الآن زوجين سعيدين راغدين ..

وانتهى بي الامر الى الايمان بالقضاء والقدر ...

ثم بدأت رغباتي المجنونة تبرز حادة ، عنيدة ، لايقف في وجه تحقيقها شيء .. فكي استطيع الاقامة في حجرة البوابة التي لجأت اليها ليلة المعركة بنيت جناحاً كاملاً في الدير ..

وبغية الانتقام من راهبات زعمت انهن اهنني فعلت المستحيل فعينت رئيسة لدير كاسترو ..

ان تحقيقي رغباتي الرعناء لم يزدني الا برماً بالحياة وتذمراً منها.. بل قل ان تحقيق تلك الرغبات اتم الاجهاز على اعصابي فرحت اتسلى بتعذيب الآخرين والتحكم بهم والحاق الأذى بكل من تطاله يدي فكنت رئيسة ظلومة غاشمـة اجمعت راهبات الدير على مقتها

وكراهيتها ..

ثم اني انثنيت الى نفسي فوجدتهـــا ، حسب مفهوم المجتمع ، رائعة في الشباب ، تقية ، غنية ، محترمة ، مرهوبة الجانب .. تعيسة منتهي التعاسة بكل ذلك .. فقد ساءني ما انا فيه فرمت تحطيم كبريائي ، واذلال جسدي ، وتمريغ جمالي في حمأة الرذيلة .

وفي هذه الفترة العصيبـة برز في حياتي هـذا الرجل الحقير ، الابله المأفون فاتخذته وسيلة لبلوغ مأربي لا غاية لابلغه مأربه ...

الا ترى ياحبيبي اني اعترف لك بكل شيء .. ومن احق منك بسماع اعترافي الاخير ، فعندما تنتهي اليك اسطري هذه يكون الدود قد شرع يعيث فساداً في هذا الجمال المزعوم الذي ماكان له ان يمنح الا لك وما كان لمخلوق ان يتمتع به سواك ...

بالرغم من كل تلك الافـكار التي كانت تعصف في رأسي منذرة بالجنون القريب ، لم استطع قط ان اسلم جسدي لذلك الرجل دون ان اشعر بتقزز شديد واشمئزاز ممزق يحولان دون احساسي باية لذة تنجم على ممارسة الحب ..

كان طيفك لايفارقني ابداً .. فانا اتخيلك ابداً امامي ثم بـــين ذراعيك ... ثم تأتي المادونا وتوحي اليك بتلك الفكرة الكريمة التي كانت السبب الثاني ، بعد امي ، في ماالقيته من شقاء دونه كل شقاء وعذاب لايدانيه عذاب .

لقد كنت طيباً ، شفوقاً ، رقيقـاً في كل حين .. ولذا كنت

اتخيلك تنظر الي عاتباً لامهـدداً فتثور مشاعري واهم بذلك الرجل فاسمعـه قوارص الـكلام واطرده وكثيراً ما اضربه واركله بقدمي هاتين ..

زعمت لنفسي ان التفـكير فيـك يبعد عني فـكرة الموت غير ان ذلك لم يزدني الا تمسكاً بها لأني لا استطيع ان القاك وانا احمل هذه الاوزار الثقال بعد ان فارقتك نقية كزنابق الحقل ، طهورة كندي الصباح ..

ثابر ياجول على العيش فانت اهل للحياة .. واستمر في اعمالك العسكرية المجيدة التي كللت باغار هامتك ..

عش ياجول وتذكر ابداً هيلين التي ماتت ، في سانت مارت ، كي لا ترى في عينيك الحبيبتين بريق لوم او ومضة عتب ...»

. . .

ما ان فرغت هيلين من هذه الرسالة حتى دنت من الجنـــــدي الشيخ فوجدته يغط في نومـــــه فاختلست منه خنجره ثم ايقظته وقالت له :

ـ لقد فرغت . اخشى ان يكتشف اعداؤنا السرداب وشيكاً . امض سريعـاً برسالتي وسلمهـا انت نفسك الى جول ، يداً بيد . اتسمع . واعطه هذا المنديل ، منديلي ، وقل له اني لا احبه ، في لحظتي الاخيرة هذه ، اكثر مما احببته في كل لحظة اخرى من

حياتي ، لاني حملت له دائماً اعظم حب يحمله قلب امرأة على مر العصور ...

وظل ايغون واقفاً لايبدي حراكاً ..

واهابت به هيلين : امض !

– سيدتي . هل فكرت جيداً ؟ السيد جول مازال يحمل الك اعظم الحب ..

– وانا كذلك . خذ الرسالة وامض بها وسلمها يداً بيد .

– حسناً . وليباركك الله وتغفر لك ١٠لمادونا ...

ومضى ايغون ولكنه لم يلبث ان عاد ادراجه ليأخذ خنجره الذي ظن انه نسيه في الحجرة ..

وجحظت عيناه عندما وقعتا على هيلين سابحة في بركة من دم والخنجر مغروساً في قلبها الذي ادماه خنجر الحب قبل ان يقطع نياطه خنجر فولاذي رهيف ...